أثر السنة النبوية في تثبيت دعائم الإصلاح السياسي داخل المجتمع المسلم

حامد صبار سعيد

The impact of the Prophetic Sunnah in establishing the pillars of political reform within the Muslim community

Hamid Sabbar Sa`eed

The research deals with the theme of the prophetic sunnah and it`s impact on reforming the Muslim society in a manner that preserves the unity of the Muslims through dialogue and understanding and taking into consideration the feelings of public opinion and the prevention of strife.

L'impact de la Sunna dans la consolidation de la réforme politique au sein de la communauté musulmane

Hamid Sabbar Saeed…

Cette recherche traite le sujet de la Sunna et son impact sur la réforme de la communauté musulmane de façon de maintenir l'unité des musulmans à travers la bonne conversation et la prise en compte l'opinion publique et d'empêcher le disaccord…

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلب الأول

المحافظة على وحدة المسلمين

إذا كانت الفرقة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوؤ المكانة الفاضلة من جديد.

إن اتحاد الأمة الإسلامية على أسس ديننا العظيم أمل كل المسلمين الصادقين في كل مكان؛ ذلك أن الإسلام هو الذي جعل من العرب المتناحرين أخوة في دين الله، كما أن الإسلام بعقيدته الصحيحة، وعبادته الصادقة، وأخلاقه الرفيعة، صهر الأمم والشعوب والحضارات التي دخلت فيه، وجعل منهم أمة واحدة مترابطة ترابط الجسد الواحد لا فرق بين الفارسي ولا البربري، ولا الرومي ولا العربي، إلا بالتقوى، وأصبحت الأمة أمة الإسلام واحدة في عقيدتها وتصوراتها ومنهجها، وانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم ، وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة [١].

إن المضامين الفكرية والأخلاقية في السنة النبوية توجب على قادة الفكر والرأي السعي إلى المحافظة على وحدة المسلمين من خلال محاربة أسباب الفرقة.

فقد أكدت السنة النبوية الشريفة على أهمية الوحدة، وفضلها ومنزلتها، واتخذت كثيراً من الوسائل العملية لإنماء الروح الجماعية بين المسلمين، وبينت دورها في الحفاظ على البناء السياسي والاجتماعي للأمة.

- فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا

(١) فقه النصر والتمكين: د. علي محمد الصلابي، ص ٢٦٠ – ٢٦١.

تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)) [١].

- عن جابر بن سمرة ﷺ قال: ((خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ بالجابية قال: قام فينا رسول الله ﷺ اليوم، فقال: أحسنوا إلى أصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى يشهد الرجل على اليمين لا يسألها، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بالمرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)) [٢].
- وعن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من خرج من الطاعة وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمِّيّة ، يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية، فقتل، فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي بسيفه يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى مؤمنها، ولا يفي لذي عهد بعهده، فليس مني ولست منه)) [٣].

---

(١) صحيح مسلم:١٣٤٠/٣،برقم ١٧١٥، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه.

(٢) السنن الكبرى:للنسائي:٣٨٧/٥،برقم ٩٢١٩، وصحيح ابن حبان:١٢٢/١٥،برقم ٦٧٢٨، ذكر الإخبار عما يظهر في الناس من المسابقة في الشهادات والأيمان الكاذبة، والمستدرك على الصحيحين:للحاكم:١٩٧/١،برقم ٣٨٧، وقال:(هذا حديث= =صحيح على شرط الشيخين، فإني لا أعلم خلافا بين أصحاب عبد الله بن المبارك في إقامة هذا الإسناد عنه ولم يخرجاه)،وقال الشوكاني في نيل الأوطار:٢٢٨/٩ :(رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي بعد إخراج هذا الحديث: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من وجه عن عمر عن النبي ﷺ انتهى وأخرجه أيضا ابن حبان وصححه).

(٣) صحيح مسلم: ١٤٧٦/٣،برقم ١٨٤٨،كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ثم ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة.

- وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من رأى من أميره شيئاً يكرهه، فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً ، فيموت، إلا مات ميتة جاهلية))[١].
- وعن عرفجة ﷺ قال سمعت النبي ﷺ يقول: ((من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه)) [٢].
- وتعميقاً لوحدة جماعة المؤمنين شبه الرسول ﷺ المؤمنين بالبنيان يشد بعضه بعضاً، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه)) [٣].

ففي هذه الأحاديث الشريفة دعوة إلى الوحدة الجماعية بين أبناء الأمة الإسلامية.

والقائمون على العمل الدعوي ينبغي عليهم أن يستحضروا دائماً فكرة وحدة جماعة المؤمنين، وتماسك بنائهم، فالرجل الواحد جسد ذو أعضاء مترابطة يجمعها عصب واحد، ويديرها فكر واحد، وتحركها عواطف واحدة، وانفعالات واحدة، ويغذيها دم واحد، وتسير جميعاً إلى غاية واحدة، فإذا نزل الألم بالبعض، فقد نزل الألم بالكل على سبيل المشاركة، وإذا تمتع البعض بلذة من اللذات، أشترك معه فيها الجميع، بحكم الصلة الوثيقة التي تؤلف وحدة الأحاسيس والمشاعر [٤].

واستحضار الدعاة الفكرة الوحدة الإسلامية يكون من خلال الاعتصام بالكتاب والسنة، وحصر التلقي لأحكام الدين أصوله وفروعه في هذا المصدر، وأن يرد الخلاف إليهما عند التنازع، وأن لا يعارضا بشيء من المعارضات، ولا بمعقول ولا رأي، ولا قياس ولا ذوق، ولا وجد ولا مكاشفة، ولا منام ولا غير ذلك [٥].

---

(١) صحيح البخاري:٢٥٨٨/٦،برقم ٦٦٤٦،كتاب الفتن،باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورا تنكرونها، وقال عبد الله بن زيد قال النبي ﷺ: اصبروا حتى تلقوني على الحوض.

(٢) صحيح مسلم:١٤٨٠/٣،برقم ١٨٥٢،كتاب الإمارة،باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

(٣) صحيح البخاري:٨٦٣/٢،برقم ٢٣١٤،كتاب المظالم، باب نصر المظلوم.

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة، ٢/ ١٧٥.

(٥) فقه النصر والتمكين: د. علي محمد الصلابي، ص ٢٦١.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: ((يا أيها الناس، إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي))[١].

إن من واجبات السلطة السياسية تحصين المسلمين من المناهج والنظريات والدعوات الأرضية، التي تفنن أصحابها في تزويقها وتزيينها، وكانت سبباً مهماً في تشتيت ولاء المسلمين، وفقد كثير من أبناء المسلمين هويتهم، ومسخ شخصيتهم بفعل التضليل المستمر الذي يمارسه شياطين الإنس والجن بمختلف الوسائل، ومن أسباب جمع صفوف الأمة، وتحقيق الوحدة بينها الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة، ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده [٢].

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخي، والاجتماع على البر والتقوى يكمن بالاعتصام بالكتاب والسنة التي تدعو إلى الجماعة والوحدة، وتذم الفرقة والتشتت.

البعد الأخلاقي في المحافظة على الوحدة الإسلامية

غذّى الإسلام الدافع الجماعي والوحدوي، وعمل على تنميته بين المسلمين، وحث على لزوم الجماعة، وحاول التخفيف من أنانية الإنسان وانعزاليته، وحذر من الانفرادية والفرقة، ما لم تفسد الجماعة فساداً عاماً، لما في الدافع الجماعي ولزوم جماعة الخير من فوائد عظيمة، للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ولما في الأنانية، والانعزالية، والانفرادية من مضار كثيرة، للفرد الإنساني وللجماعة الإنسانية [٣].

إن التزام المسلم بالمحافظة على وحدة وترابط المجتمع الإسلامي، له فوائد عظيمة على الصعيد الأخلاقي، حيث تقتبس من خلال الوحدة الثمرات المفيدة للأمة، سواءٌ كانت علمية أو عملية، فالاجتماع يدفع إلى الحركة، ويطلق كثيراً من الطاقات الكامنة في العقول، بخلاف الانعزالية والانفراد، فإنها تميل بالإنسان بالتوحش والحذر من كل شيء، ويغذي الأنفس بكثير من رذائل الأخلاق.

---

(١) صحيح مسلم:٢/ ٨٩٠، برقم ١٢١٨، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ.

(٢) فقه النصر والتمكين: د. علي محمد الصلابي، ص ٢٦٦.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة، ١٧١/٢.

إن المصاب بالانفرادية والانعزال نفورٌ أذيٌ غضوبٌ، لا يبصر على أي عمل يؤذيه أو يخالف هواه، ولا يستطيع أن يتكيف مع أية مجموعة بشرية يلتقي معها، ولا يستطيع أن يضغط على نفسه بشيء يخالف هواه؛ ليحسن معاشرة من يلتقي معهم من الناس، كيف يستطيع ذلك والأنانية والانفرادية والانعزالية هي الحاكمة عليه، وفوائد الاجتماع هذه إنما تحصل بشرط أن يكون المجتمع مجتمعاً صالحاً، أو فيه نسبة من الصلاح كافية، أما إذا كان مجتمعاً سيئاً أو فيه نسبة كبيرة من السوء، فإن جفوته والاعتزال عنه خير وأفضل، وعلى العاقل في مثل هذا الوضع أن يتخذ لنفسه مجتمعاً محدوداً صالحاً يتعامل معه ويعيش في وسطه [١].

وتابع الإسلام عملية غرس الروح الجماعية وفكرة الوحدة في نفوس أفراد المؤمنين، وتربيتهم على الإحساس الدائم بالمشاعر الجماعية، من خلال إقامة شعائر دينية ذات طابع جماعي، فقد حث المسلمين على شهودها، وشدد النكير على من يتخلف عنها، ومن أهمها صلاة الجماعة، فعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية)) [٢]، أي أن يأكل الذئب المبتعدة من الغنم عن أخواتها، وفي هذا بيان للسبب الذي دفع إلى التحذير من الانفراد والبعد عن جماعة المؤمنين، فالمبتعد عن جماعة المؤمنين يعرض نفسه لذئاب الشر، وشياطين الإفساد الذين يغوونه ويضلونه [٣].

إن تفريق جماعة المسلمين، وكسر وحدتهم بالدعوات الجاهلية ظلم كبير، وإثم عظيم، وعودٌ بهذه الأمة إلى ما كانت عليه في جاهليتها، متفرقة ممزقة بدعواتها الجاهلية التي ليس لها أساس فكري يدعمها، وليس لها أساس نفسي إلا العصبيات

---

(١)الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة، ٢/ ١٧٢ – ١٧٣.

(٢) سنن أبي داود:١/١٥٠، برقم ٥٤٧،كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، والسنن الكبرى:للنسائي:١/٢٩٦، برقم ٩٢٠، قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب:١/١٦٦ (رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم).

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة، ٢/ ١٧٢.

والأنانيات، كذلك كانت الأمة العربية، فجاءها الإسلام، فجمع كلمتها على الإيمان بالله، و وحد صفها، وألغى دعواتها الجاهلية، وأعلن أنها منتنة، وجعل من آمن من العرب نواة الوحدة الإنسانية الكبرى تحت راية الإسلام، ثم أقام منهم الدولة القرآنية الربانية، التي تشتمل على خير الإنسانية كلها، غير عابئة بأية فوارق عرقية، أو نسبية، أو لونية، أو إقليمية، أو طبقية، أما الفوارق المعتبرة عندها، فهي الفضائل الذاتية والأعمال الصالحات، وقد وجه القرآن الأمة العربية أن تذكر باستمرار ما كانت عليه في جاهليتها قبل نعمة الإسلام، ولقد عالجت السنة النبوية الشريفة الأسباب الرئيسة المؤدية للفرقة، وعدم الوحدة، وسأتناول منها فيما يأتي :

١- **إتباع الهوى:** عرف أهل اللغة الهوى بأنه: (محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه)[١].

وأما في الاصطلاح فهو: (ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع) [٢].

ويُعد إتباع الهوى من أهم الأسباب التي تدعو إلى الفرقة والانقسام، وإن استحكام الهوى على العقل الإنساني سبب أساس في حالة التخبط، والتعثر الذي يعتري العمل السياسي.

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تحذر من إتباع الهوى، حيث يقول النبي ﷺ:

(١) لسان العرب: ٣٧١/١٥.

(٢) التعريفات: للإمام الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ بدون تاريخ، ص ٢٥٧

((إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم جائر)) [١].

وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى)) [٢].

وكان ابن منبه يقول: (أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردى إتباع الهوى، ومن إتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم، ومن استحلال المحارم يغضب الله، وغضب الله الداء الذي لا دواء له إلا رضوان الله، ورضوان الله دواء لا يضر معه داء، ومن يريد أن يرضي ربه يسخط نفسه، ومن لا يسخط نفسه لا يرضي ربه، إن كان كلما ثقل على الإنسان شيء من دينه تركه أوشك أن لا يبقى معه شيء)[٣].

ويقول الإمام الشعبي: (إنما سُمِّي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه)[٤]، ويقول الإمام مسلم ابن يسار: (إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته) [٥].

١- **التعصب والتشدد والانغلاق:** والتعصب لغةً: من العصبية، وتَعَصَّبَ، أي: شد العصابة [٦]، وفي الاصطلاح: هو أن تجعل ما يصدر عن شخص ما من الرأي،

(١) مسند البزار: ٨/ ٣١٤، برقم ٣٣٨٤، والمعجم الكبير للطبراني ١٧/ ١٧، برقم ١٤، وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه كثير بن عبد الله بن عوف، وهو متروك، وقد حسن له الترمذي، مجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي، ١/ ١٨٧، باب ما يخاف على الأمة من زلة عالم وجدال منافق وغير ذلك.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤ / ٤٢٠، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي: ١/ ١٨٨، باب في البدع والأهواء.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥ هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١/١٤٠٩ هـ، ٧/ ١٨٤.

(٤) سنن الدارمي: ١/١٢٠.

(٥) سنن الدارمي: ١/ ١٢٠.

(٦) لسان العرب: ١/ ٦٠٧.

ويروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد [١].

إن التقليد الأعمى والتعصب يؤديان إلى الانحراف عن الطريق الصحيح، الذي ينبغي على القائمين على العمل الدعوي أن تسيروا عليه، والتشدد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن المنهج الرباني، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى[٢].

وإذا كانت الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ تنهى عن الغلو في الدين، فمن باب الأولى عدم الغلو في أمر سياسة الدنيا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((... إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)) [٣]، وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً)) [٤].

إن حالة الغلو والتشدد والانغلاق عند البعض، أفرز حالة من التفكير الشاذ، ومن ذلك فكرة استعداء الجميع، وفتح جبهات واسعة ضد العالم الغربي من دون التمييز بين دولة وأخرى، وبين أمة وأمة، إننا لا ننكر بأن هناك حالة من العداء الغربي ضد العالم الإسلامي، لكن المهم التمييز بين النظم الحاكمة التي تخطط وبين الشعوب المسالمة، وضروري أن نفرق بين العلوم والمعارف التي هي ميراث حضاري وإنساني، وبين الصراع الفكري والسياسي، فإلى زمن قريب، والبعض يناقش في مشروعية البضائع والتقنيات والعلوم الأجنبية الوافدة من الغرب، ووصل الأمر في بعض الواجهات الدينية أن زجت نفسها في ميادين لا ينبغي أن يتكلم فيها من تحجر عقله بسبب التعصب، وضاق أفقه بسبب التشدد، وقلّ علمه بسبب الانغلاق الفكري والعلمي، ومن ذلك تحريم

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٢ هـ، ص ٧ .

(٢) فقه النصر والتمكين: د. علي محمد الصلابي، ص ٢٥٩.

(٣) سنن النسائي: ٥/ ٢٦٨، برقم ٣٠٥٧، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، وصحيح ابن حبان: ٩/ ١٨٣، برقم ٣٨٧١، كتاب الحج، باب رمي جمرة العقبة، والسنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ١٢٧، برقم ٩٣١٧، كتاب الحج، باب أخذ الحصى لرمي جمرة العقبة، وكيفية ذلك.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٥٥، برقم ٢٦٧٠، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون.

البعض الصعود إلى القمر، فعندما وقعت حادثة الصعود إلى القمر في عام ١٩٦٩ م في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث سبق ذلك سباق محموم بين الخبراء السوفيت والأمريكان على غزو الفضاء والصعود إلى القمر، وكانت مركبة " غاغارين " هي الأولى في غزو الفضاء الخارجي، وفي غمرة السباق نحو الفضاء بين دول الغرب صدرت فتوى من بعض الواجهات الإسلامية المحترمة مفادها تحريم ذلك، وجعله أمراً مستحيلاً، لا بل عدوه كفراً وتحدياً لله !!، ومن هنا استغل أعداء الإسلام هذا التعصب والانغلاق،فبدؤوا يتهمون الإسلام بالتخلف، حيث يقول الدكتور فاروق الباز الذي كان مرافقاً للخبير الأمريكي الدكتور "جيمس أروين" وهو يلقي محاضرته عن مركبته الفضائية التي صعد بها إلى القمر: (لقد استغل الغربيون النصارى هذه الفتوى أشد الاستغلال، فكانوا يوزعونها مطبوعة على آلاف الحاضرين من طلبة الجامعات، والعاملين في مراكز الأبحاث، وجمهور المشاهدين، وباللغتين العربية والإنجليزية؛ ليبدوا للرأي العام الغربي،وللجمهور المحتشد حول قاعدة إطلاق المركبة الفضائية أن المسلمين حمقى)[1].

إننا بحاجة إلى عقليات متفتحة تقوم بتحييد من لم يبادر بالعدوان من ساحة المواجهة، وتسعى إلى الاستفادة من التقدم التكنولوجي والعلمي الموجود في الحضارات الأخرى، وإن الانغلاق والانطواء على الذات يفتح أبواب الدعاية المغرضة التي يروجها العلمانيون، بزعمهم بأن الإسلام دين يُحَجِّر العقول، ويُضيّق على الناس، وينشر البغض والكراهية بين الأمم مما تسبب في تشويه الصورة المشرقة للإسلام، حيث كانت المراكز الإسلامية في البلدان الأوربية تستقبل أعداداً من الأوربيين الذين هداهم الله للإسلام بشكل هزَّ مضاجع أعداء الإسلام، ولكن تصرفات بعض المتشددين غيَّرت من هذا الواقع بسبب التعصب والانغلاق.

إن الفضل في نشر الإسلام في بلدان العالم الغربي، ولاسيما في البلدان الأوربية يعود إلى قادة الفكر الإسلامي الوسطي الذين كسروا حواجز العزلة التي صنعها التنطع والتعصب.

(١) الموقظة:عبد الكريم الآلوسي، مطبعة الخلود، العراق، ط١ / ١٩٩٢ م، ص ٥٩.

ويضاف إلى ما تقدم، فإن التشدد والتعصب والانغلاق شكَّل حالة من الانقسام والانشقاق في الصف الإسلامي بسبب استنكار الناس له،وكل تشدد في غير محله يقابله تراخ في غير محله،كرد فعل له.

٢-تقديم العقل وتحكيمه على النصوص:

فمن أعظم الأخطاء التي يقع فيها البعض تقديمه العقل مع وجود النص، حيث يجر إلى ذلك الغرور وإقحام العقل في غير مجاله، كما فعل أهل الأهواء الذين بسببهم سرى التشتت في الأمة، فأصبحت فرقاً تتخبط في دياجير الظلام، مبتعدةً عن كتاب ربها، وسنة نبيها ﷺ .

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تحث على التمسك بالكتاب والسنة، وتقديمهما على كل شيء، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: ((يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنتي)) [(١)]. ولو تمسك الجميع بالكتاب والسنة، وجعلوهما المصدر الوحيد للتلقي، وأعرضوا عما خالفهما، واتبعوا منهج سلف الأمة في فهم أحكام الدين، أصوله وفروعه، لما حصل الانقسام والفرقة، ولكن ما وقعوا فيه كان نتيجة حتمية لتحكيم العقل في مجال غير المجال الذي خلق له.

ومما تجدر الإشارة إليه: هو أن أكبر تحدي يواجه الإسلاميين بكل أطيافهم ومشاربهم في الوقت الحاضر، هو حالة الانقسام الموجودة في صفوفهم، مما يعد خرقاً على المستوى الأخلاقي.

إن تعدد الآراء والاتجاهات الفكرية أمر طبيعي وفطري ولا غبار عليه، لكن الشيء المستنكر المبالغة في حدة الانقسام، وتحشيد الأتباع؛ لنصرة الفكرة التي يُنظّر لها أهلها، وتسفيه آراء المقابل، والانتقاص منها، ورميها بالخطأ وربما بالضلال، مما يفتح ثغرة للعلمانيين وادعاءاتهم بعدم صلاحية التيارات الإسلامية لتولي الشأن السياسي، وإجهاض فكرة قيام نظام سياسي إسلامي يُحكِّم شريعة الله في الأرض، بحجة أن الإسلاميين لم يستطيعوا أن يضبطوا أنفسهم، ويُوحّدوا شارعهم، ويتفاهموا فيما بينهم، فكيف يستطيعوا أن يُوحّدوا بلداً متعدد الانتماءات والقوميات تحت راية واحدة، ويتفاهموا مع الأمم الأخرى.

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٨٩٠، برقم ١٢١٨، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ.

الأثر السياسي في المحافظة على وحدة المسلمين

وينبغي لمعرفة الأثر السياسي لوحدة المسلمين، أن نعرف ما هو موقف دوائر الفكر السياسي في العالم الغربي من الوحدة الإسلامية، حيث أن أكثر ما يخيف أعداء الإسلام من الغربيين أن يرو المسلمين أقوياء موحدين، وأن يرو للمسلمين دولة، تجمع شتاتهم، وتوحد قواهم، وتنظم شؤون حياتهم.

وقد عبروا عن مخاوفهم على لسان مفكريهم وكتابهم، فقال القس سيمون: (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التخلص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من اجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية [١].

وقال المبشر لورانس براون: (إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير، يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين، حتى يبقوا بلا قوة ولا تأثير [٢].

وقال "آرنولد توينبي": في كتابه "الإسلام والغرب" (إن الوحدة العربية نائمة، ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ) [٣].

وفي عام ١٩٠٧ م عقد مؤتمر أوربي كبير، ضم القادة والزعماء برئاسة وزير خارجية بريطانيا آنذاك؛ لبحث الوسائل التي تحول دون انهيار الحضارة الأوربية، وبعد شهر من الدراسة والنقاش قرروا وضع خطة لبذل جهودهم كلها لمنع إيجاد أي اتحاد أو اتفاق بين دول الشرق الأوسط؛ لأن الشرق الأوسط المسلم المتحد يشكل الخطر الوحيد على مستقبل أوربا [٤].

ومن أجل تقسيم الأمة الإسلامية وتفكيك وحدتها اتبع الغرب سياسة " فرق تسد " "Divide" and Rule" وتقوم هذه السياسة في مضمونها السياسي على محاولة الإبقاء

---

(١) قادة الغرب: جلال العالم، دار الأرقم، عمان – الأردن، ط١/ ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م، ص ٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٥ .

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٦.

(٤) قادة الغرب: جلال العالم، ص ٧٧.

على الدول المتنافسة مع دولة في حالة من التفكك والانقسام؛ لإضعاف قواها وإيجاد الثغرات التي يمكن النفاذ منها ضماناً؛ لعدم حدوث اختلال قوة في غير صالح هذه الدولة(١).

ومنذ الحرب العالمية الأولى شجعت بريطانيا قيام محاور سياسية وإقليمية متصارعة داخل الوطن العربي، وذلك عن طريق تحريك بعض الحساسيات، أو تغذية بعض المخاوف، أو تشجيع بعض النزعات الإقليمية الضعيفة، مثلما فعلت عندما أيدت مشروع الهلال الخصيب، أو مشروع سوريا الكبرى؛ وذلك لكي تظل هذه المنطقة منقسمة على نفسها مما يسهل عليها استغلالها بالكيفية التي تتلاءم وأهدافها البعيدة، كما كان حلف بغداد الذي أقامته بريطانيا في عام ١٩٥٥ م تطبيقاً مباشراً لهذه السياسة، فعن طريقه أمكنها أن تقسم العالم العربي إلى معسكرين متخاصمين، أحدهما يؤيد هذه الأحلاف وينظم إليها، والآخر يعارضها ويندد بها ويقود الحملة المناهضة لها (٢).

ولعظيم ما لوحدة المسلمين من آثار سياسية مهمة، نجد البند الأول في الوثيقة التي تنظم العلاقات الداخلية والخارجية للمسلمين في دولتهم التي أنشأت بعد الهجرة، ينص على مبدأ الوحدة الإسلامية: (المسلمون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس) (٣).

إن جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي المنتظم المتعاون، بخلاف العمل الفردي، فإنه لا يثمر في الغالب إلا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدة وضعفاً، والنزعة الانفرادية تنمو معها الرغبة القبيحة بتهديم أعمال الآخرين، حرصاً على الانفراد بمجد التقدير بين الناس، ومع هذه الرغبة القبيحة تتبدد الأعمال الفردية نفسها، فتحرم الإنسانية بالانفرادية ثمرات الأعمال الجماعية (٤).

إن الارتباط بالجماعة والتعاون معها يضاعف مقادير القوة؛ لأن القوة المجتمعة تصمد أمام الأخرى المعادية، بخلاف القوى الانفرادية المتناثرة، فإن أية قوة معادية

(١) العلاقات السياسية الدولية: د. إسماعيل صبري مقلد، ص ٢٦٧.

(٢) العلاقات السياسية الدولية: د. إسماعيل صبري مقلد، ص ٢٦٨.

(٣) سنن البيهقي الكبرى:١٠٦/٨،كتاب الجراح، باب العاقلة، والسيرة النبوية:لإبن هشام:٣٢/٣.

(٤) ينظر: العلاقات السياسية الدولية: د. إسماعيل صبري مقلد، ص ٢٧٠.

مجتمعة تستطيع الظفر بها والتغلب عليها، إن القوة الانفرادية زائد القوة الانفرادية تساويان مجتمعتين أكثر منهما متفرقتين، والسبب في ذلك أن القوى الانفرادية تتدخل فيها عوامل الوهن والتخاذل، فتبدد قسماً كبيراً منها، أو تحجبه عن الظهور والاستعمال، فتظهر قيمة القوة ذات نسبة ضعيفة، بخلاف هذه القوة إذ كانت مجتمعه مع غيرها، فإنها تقترن بعوامل الطمأنينة والأمل بالنجاح، فتشحن عن آخرها، وتضاف إليها قوى احتياطية لا تظهر إلا بتأثير عوامل قوية، وحينئذ تظهر قيمة القوة نفسها ذات نسبة عالية.

إن وحدة الصف قوة للدولة مما يجعلها عصية على المؤامرات الداخلية والخارجية؛ لأنه ليس بإمكان المتربصين التسلل إلى الداخل من أجل زعزعة الأمن والاستقرار والإطاحة بالنظام السياسي؛ لقوة الجبهة الداخلية وتماسكها و وحدتها، ويجعل فرص العدوان الخارجي ضئيلة؛ لأن العدو حتماً سوف يأخذ بحسبانه القوة التي أنتجتها وحدة الصف الداخلي وتماسكه، فيمتنع عن عدوانه.

المطلب الثاني

الالتزام بأدب الحوار عند التشاور

للحديث مع الغير في الإسلام أصول وآداب يطلب مراعاتها حتى يكون المسلم واقفاً عند حدود الله تعالى، عاملاً في مرضاته، متجنباً مساخطه، فما أكثر عثرات اللسان حين يتكلم، وما أكثر مزالقه الاجتماعية والسياسية، و وقوعه في أخطاء في منتهى الخطورة على النفس وعلى المجتمع.

ويكفى لمعرفة خطر اللسان وما ينطق به، والآثار المترتبة على ما ينطق به الإنسان، ويصرح به ما رواه سهل بن سعد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: ((من يضمن

لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)) [١]، والمراد بما بين لحييه: اللسان، والمراد بما بين رجليه: الفرج.

وعن أبي هريرة ﷺ قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)) [٢].

وقد حفظت لنا السنة النبوية العطرة آداباً وأخلاقيات عظيمة امتدت حتى إلى الأمور التعبدية، فلم تغب عن الصحابة آداب الحوار والخلاف، وتقبل رأي الآخر، وأبرز مثال على ذلك اختلافهم في تفسير قول النبي ﷺ: ((لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة))[٣]، فبعض الصحابة ﷺ فهم منه أن المراد الاستعجال، فصلوا العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر، فلم يصلِ إلا في بني قريظة، ولم يُعَنِّف النبي ﷺ أحداً منهم، ولم يحدث هذا التمايز في الآراء، والاختلاف في التفسير إلى الانشقاق، وفقدان أدب الحوار والخلاف، بل إن الأجواء السائدة بينهم هي أجواء الاحترام والمحبة، والتفهم لرأي الآخر.

(وحاصل ما وقع: أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت توجيهاً لهذا النهي الخاص على النهي العام، عن تأخير الصلاة عن وقتها) [٤].

وقد راعت السنة النبوية أدق الحالات النفسية والمزاجية عند التخاطب مع الآخرين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:((إذا كانوا ثلاثة فلا

---

(١) صحيح البخاري:٥/٢٣٧٦،برقم ٦١٠٩،كتاب الرقائق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وقوله تعالى ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٧٧، برقم ٦١١٢، كتاب الرقائق، باب حفظ اللسان.

(٣) صحيح البخاري: ١/٣٢١، برقم ٩٠٤، كتاب أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء.

(٤) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ٢/ ٢٨٦.

يتناجى اثنان دون الثالث)) [١]، وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه))[٢]، حيث أصلت هذه الأحاديث أخلاقية إسلامية تعتبر من آداب الحوار، إذ لا يحل لرجلين ومعهما ثالث؛ لأن ذلك يحزنه ويؤذيه، فقد يظن أنهما يتآمران عليه، أو يظن أن إسرارهما الحديث عنه لسوء رأيهما فيه [٣].

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تضبط الحوار والتشاور بين المخاطبين، إذ يجب على المتحاورين مراعاة الآداب والأخلاقيات الإسلامية عند التحاور والتشاور، ومن ذلك:

- الابتعاد عن تأجيج المواقف السياسية والتصعيد فيها، فمن الضروري المحافظة على حالة السلم الأهلي، والعيش المشترك داخل المجتمعات الإسلامية، حيث يبين النبي ﷺ خطورة الكلمة ومكانتها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب))[٤].

وينبغي على قادة الفكر والرأي؛ ولتفادي تأجيج المواقف والدخول في سجالات وخلافات أن يردوا الرأي إلى منهاج الله تعالى؛ ليقيسوا به، ويحكموا على آرائهم بشرع الله، فيميزوا الصواب من الخطأ، ويستبينوا الصالح من الفاسد من آرائهم [٥]،

البعد عن المماراة والمهاترات الكلامية والجدل السياسي العقيم، فالإسلام يربي أتباعه على الترفع عن صغائر الأمور، وانتقاء طيب الكلام، حتى ولو كان المسلم مازحاً، حيث كان النبي ﷺ يمازح أصحابه ولا يقول إلا حقاً، فعن بن عمر رضي الله

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣١٨، برقم ٥٩٣٠، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

(٢) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣١٩، برقم ٥٩٣٢، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسامرة والمناجاة.

(٣) السلوك الاجتماعي في الإسلام: حسن أيوب، ص ٤١٤.

(٤) صحيح البخاري: ٥/٢٣٧٧، برقم ٦١١٢، كتاب الرقائق، باب حفظ اللسان.

(٥) ينظر: فقه الشورى: د. علي سعيد الغامدي، ص ١٠١.

عنهما قال: قال رسول الله: ((إني لأمزح ولا أقول إلا حقا))[١]، والمماراة هي: عبارة عن جدال فيما لا طائل منه، فإن الجدال الذي لا يراد منه الوصول إلى الحق، ولا يكون على سبيل البحث عن شيء غير واضح، وإنما يقصد منه الجدل، أو يقصد منه تعجيز الغير وإفحامه عن غير سبب شرعي، أو يقصد به التشهير والإزعاج يعتبر حراماً وممنوعاً شرعاً، وهو علامة مرض المجادل وسوء طويته، وخبث سريرته، وضعف إيمانه [٢]؛ ولذا قال النبي ﷺ: ((ما ظل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل))[٣] وعن أبي إمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ((أنا زعيم ببيت في ربض[٤] الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً)) [٥]، وقال مالك بن انس ﷺ: ليس هذا الجدال من الدين في شيء، وقال أيضاً: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن، وقال أبو الدرداء: كفى بك إثماً أن لا تزال مماريا، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: لا تتعلم العلم لثلاث، ولا تتركه لثلاث: لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به، ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل عنه [٦].

قال الإمام الغزالي: وحدُّ المراء هو: كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم، وترك المراء يكون بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته إن كان حقاً فصدقه، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن

(١) المعجم الأوسط: للطبراني:٢٩٨/١، برقم ٩٩٥، وقال العجلوني في كشف الخفاء:٢٧٢/١ (رواه الطبراني عن ابن عمر والخطيب عن أنس ﷺ).

(٢) السلوك الاجتماعي في الإسلام: أ. حسن أيوب، دار الندوة الجديدة، بيروت، ط ١٤٠٣/٤ ه -١٩٨٣ م، ص ٤٢٥.

(٣) سنن الترمذي: ٣٧٨/٥، برقم ٣٢٥٣، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الزخرف، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أي: ما يحيط بها خارجاً عنها.

(٥) سنن أبي داود: ٤/ ٢٥٣، برقم ٤٨٠٠، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، وقال الحافظ المنذري: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٦) السلوك الاجتماعي في الإسلام: أ. حسن أيوب، ص ٤٢٥.

متعلقاً بأمور الدين، فاسكت عنه، وأما المجادلة فهي: عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه [١].

ويندرج تحت هذه الأخلاقية حسن الإنصات والاستماع بين المتحاورين، فإن هذا في حد ذاته أدب رفيع، فمن خلاله يتم إيصال الفكرة التي يطمح المتحدث إلى إيصالها للمستمعين، ففي حجة الوداع أمر النبي ﷺ جرير بن عبد الله ﷺ أن يستنصت الناس، فعن جرير أن النبي ﷺ قال له:((في حجة الوداع استنصت الناس، فقال: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)) [٢].

- أن يكون الكلام والحوار يهدف إلى تحقيق مصلحة الأمة، فمن شأن المسلم الفاهم الخائف من ربه أن لا يخوض فيما فيه ضرر على مصلحة الأمة [٣]، وقد امتدت التوجيهات الإسلامية لتشمل أدق الحالات التي تتعلق بالأداء الفكري والعملي للإنسان، وفي قمة ذلك عامل الوقت، حيث ينبغي معرفة أهمية الوقت، والحرص على عدم إضاعته في فضول الأقوال والأفعال؛ وذلك لأن القائمين على أمور المسلمين، قد ألقيت على عاتقهم أمانة عظمى وهي: رعاية شؤون الأمة من خلال المتابعة والتخطيط فيما يصب في مصالحها.

ومن لوازم تحقيق مصلحة الأمة، توسيع الخبرات، والممارسة الجيدة، فالناظر إلى النظام الإسلامي يجده ديناً عملياً، يعيب على من يقول ولا يفعل، فعن عبد الله بن سلام ﷺ قال:((قعدنا نفر من أصحاب النبي ﷺ فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملنا، فأنزل الله تعالى سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص إلى آخر السورة وقرأها علينا رسول الله ﷺ)). [٤]

---

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام: للأستاذ حسن أيوب، ص ٢٢٦.

(٢) صحيح البخاري:٥٦/١،برقم ١٢١،كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء.

(٣) السلوك الاجتماعي في الإسلام:للأستاذ حسن أيوب، ص ٤٢٤.

(٤) سنن الترمذي: ٤١٢/٥، برقم ٣٣٠٩، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الصف، والمستدرك على الصحيحين:للحاكم: ٢٤٨/٢، برقم ٢٨٩٩،وقال الحاكم:هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ومن لوازم تحقيق المصلحة أيضاً عدم التستر على المفسدين، وكشف الحقائق للرأي العام، فعن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده قال:((بايعنا رسول الله ﷺ على الطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم)) (١).

وعن أبي ذر ﷺ قال: ((أوصاني خليلي رسول الله ﷺ... أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مراً...)) (٢).

فمن هذين الحديثين العظيمين نعلم أهمية الشجاعة المتزنة عند إبداء الرأي، ولا يمنع أن يكون مع الشجاعة الأدب وبخاصة مع العلماء والعقلاء، أما السفهاء والفساق، فلا بد من القوة والصرامة معهم، وعدم التنازل عن شيء من دين الله تعالى مع الانضباط بآداب الشرع، والبعد عن البذاءة والفحش في القول والظلم، وقبول الحق ممن كان، فهذا من العدل، ولا شك أن الجبن مع معرفة الحق والسكوت عليه يؤدي إلى ضياع الأمة، وفقد الهيبة، وتجرؤ أعداء الله تعالى أن يصدعوا بباطلهم، ولعل ما يحدث في بعض المجالس النيابية خير شاهد على هذا، وقد روي عن عمر ﷺ أنه قال: ((اللهم إني أشكو إليك ضعف المؤمن، وجلد الفاجر))(٣).

- البعد عن التكلف في الكلام وفي المسائل التي تناقش: يطلب من المسلم ألا يتكلف في كلامه بأن يحاول أن يكون فصيحاً وهو لا يحسن ذلك، وليس عادة له، كما يطلب منه ألا يبحث عن الأغلوطات ليجعلها مدار حديثه مع غيره، فإن ذلك مما نهى الشرع عنه منعاً للمسلم من انتحال صفة ليست له، ومنعاً له من التشدد على غيره والتضييق عليه، فإن ذلك يتسبب في إحداث تشنج في الوضع السياسي، وتأزيم المواقف

---

(١) صحيح مسلم:١٤٧٠/٣،برقم ١٧٠٩،كتاب الإمارة، باب وجوب الطاعة وتحريمها في المعصية.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥/ ١٥٩،وصحيح ابن حبان:١٩٤/٢،برقم ٤٤٩، ومسند البزار:٣٨٣/٩،برقم ٣٩٦٦،وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب:٢٢٩/٣:(رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له).وقال الحفظ الهيثمي في مجمع الزوائد:٢٦٣/١٠: (رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه وأحد إسنادي أحمد ثقات).

(٣) فقه الشورى: د. علي سعيد الغامدي، ص ١٠٧ .

السياسية وتصعيدها، فعن جابر ﷺ قال: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً،وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون، والمشدقون، فما المتفيهقون، قال: المتكبرون)) [١]، والثرثارون: هم الذين يتكلفون كثرة الكلام، والمتشدقون: هم المتطاولون على الناس بكلامهم [٢]، والمتفيهقون: أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهم الذين يتكلمون بملء أفواههم ويتوسعون في الكلام، ويغربون فيه تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً لفضلهم على غيرهم [٣].

وقد نهى النبي ﷺ عن التنطع: فعن الأحنف بن قيس عن عبد الله بن عمرو قال:قال رسول الله ﷺ ((هلك المتنطعون قالها ثلاثاً)) [٤].

والتنطع: التكلف والمبالغة والزيادة عن الحد.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نُهينا عن التكلُّف)) [٥].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل[٦] بلسانه كما تتخلل البقرة)) [٧].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٣٧٠، برقم ٢٠١٨، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، وقال الهيثمي بعد أن أورده من طريق أبي ثعلبة الخشني: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي، ٨/٢١، وكذا المنذري في الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٧٧.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٣٧٠.

(٣) الترغيب والترهيب: للحافظ المنذري، ٣/ ٢٧٧.

(٤) صحيح مسلم:٤/٢٠٥٥،برقم٢٦٧٠،كتاب العلم،باب هلك المتنطعون.

(٥) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٥٩،برقم ٦٨٦٣، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

(٦) أي: يديرونه في أفواههم بألسنتهم.

(٧) سنن أبي داود:٤/٣٠١،برقم ٥٠٠٥، كتاب الأدب، باب ما جاء في المتشدق في الكلام، وسنن الترمذي:٥/١٤١،برقم ٢٨٥٣، كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الفصاحة والبيان.وقال أبو عيسى:هذا حديث حسن غريب.

ومعنى يبغض البليغ [١]:أي المبالغ في فصاحة الكلام، وبلاغته من الرجال:أي مما بينهم، وخصوا؛ لأنه الغالب فيهم الذي يتخلل بلسانه:أي يأكل بلسانه أو يدير لسانه حول أسنانه مبالغة في إظهار بلاغته وبيانه كما تتخلل البقرة:أي بلسانها كما في رواية، والحاصل فهو الذي يتشدق في الكلام بلسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً وخص البقرة؛ لأن جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها وهي تجمع بلسانها [٢].

ومما تقدم يستدل على أن من أخلاقيات القائمين على السلطة السياسية إشراك الجميع بالحوار وعدم قصره على مجموعة معينة.

فإذا كانت الأحاديث النبوية قد نهت عن الحوار السري في أي من الأمور بين أثنين مع وجود ثالث، فإنه من باب الأولى اشتراك الجميع في القضايا التي تهم الأمة، وعدم التستر والتغطية على بعض الأمور العامة كإبرام اتفاقيات سرية "من تحت الطاولة "، وعدم تهميش أي طرف واحتقار رأيه، بل أن الفلسفة السياسية الإسلامية تقوم على الإصغاء إلى جميع الآراء والاستماع لها، وطرح الأمور السياسية كما هي على طاولة البحث والنقاش، ويستدل أيضاً على أن الحوار السياسي ينبغي أن يكون منضبطاً بالآداب والأخلاقيات الإسلامية، إذ يجب الابتعاد عن تأجيج المواقف، والبعد عن المماراة، والجدل السياسي العقيم، والبعد عن التكلف في كل شيء من أجل تحقيق مصلحة الأمة.

(١) قال المناوي في فيض القدير:٢٨٣/٢ (أي المظهر للتفصح فيها على الغير، وتفاصحا، واستعلاء، و وسيلة إلى الاقتداء على تصغير عظيم، أو تعظيم حقير، أو بقصد تعجيز غيره، أو تزيين الباطل في صورة الحق، أو عكسه، أو إجلال الحكام له و وجاهته، وقبول شفاعته، فلا ينافي كون الجمال في اللسان، ولا أن المروءة في البيان، ولا أنه زينة من زينة الدنيا، وبهاء من بهائها، ولا يناقض هذا ((خلق الإنسان علمه البيان الرحمن))؛ لأن جعله من نعم الوهاب آية أن موضع البغض ما كان على جهة الإعجاب والتعاظم، فمن فهم تناقض الخبر والآية، فقد وهم وإلى ذلك المعنى المراد يشير قوله الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة).

(٢) تحفة الأحوذي:١١٨/٨.

البعد الأخلاقي في الالتزام بأدب الحوار عند التشاور

عنى الإسلام عناية فائقة بمنزلة الكلمة وأثرها سواء كانت طيبة أم خبيثة، فالكلمة الطيبة ثابتة عميقة الجذور في تربة صالحة ومنبت طيب؛ ولهذا فهي تنمو وترتفع حتى تبلغ السماء، وهي كالنخلة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والكلمة الطيبة تثمر دائماً وأبداً الطيب.

أما الكلمة الخبيثة، فهي مبتورة الصلة عن العقيدة والإيمان، قلقة مضطربة لا قرار لها سرعان ما تسقط كتلك الشجرة الخبيثة المتزعزعة التي تجتثها الريح وتلقي بها، وهي لا تثمر إلا الشر والفرقة والقطيعة،

وفي نصيحة رسول الله ﷺ التي أسداها إلى معاذ بن جبل ﷺ كلمات جامعات، ومما أوصاه به ودلّه على ملاك الأمر كله أنه أخذ بلسانه، حيث يقول النبي ﷺ: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله، فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، فقال: كفّ عليك هذا، فقلت: يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار ؟ أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)) [(١)].

وهذا يدل على مدى أهمية الكلمة عند عرض الرأي؛ لأنها مرتبطة بالقلب والإيمان، مرتبطة بالأمانة والمسؤولية، مرتبطة بالنية والهدف، مرتبطة بالعمل والجهد، مرتبطة بالعقيدة كلها، فتخرج نظيفة طاهرة بعيدة عن كل سوء وفحش، فالإسلام يربي أتباعه على طيب الكلام وانتقائه حتى ولو كان المسلم مازحاً، فكان ﷺ يمازح أصحابه ولا يقول إلا حقاً، فالكلمة قد تكون رأياً أو نصيحة، أو شورى أو علماً،أو غير ذلك نثراً أو شعراً،منها كلمة طيبة تؤثر أثراً حسناً،ومنها كلمة خبيثة تؤثر تأثيراً سيئاً [(٢)].

الأثر السياسي في الالتزام بأدب الحوار عند التشاور

إن الالتزام بأدب الحوار عند التشاور يساهم في حل أعقد المشكلات السياسية والاجتماعية، ولاسيما عند انتخاب الخليفة أو الرئيس، إذ بفضله تنتقل السلطة بسلاسة

---

(١) مسند الإمام أحمد:٥/٢٣١،برقم ٢٢٠٦٩، وسنن الترمذي:٥/١١ برقم ٢٦١٦، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺباب ما جاء في حرمة الصلاة.وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) فقه الشورى: علي سعيد الغامدي، ص ٩٩ – ١٠٠.

ويسر وسهولة، وأبرز مثال على ذلك الحوار الذي جرى في سقيفة بني ساعدة الذي نتج عنه انتخاب الصديق أبي بكر ﷺ خليفة بعد رسول الله ﷺ، حيث اتصف الحوار السياسي الذي دار بين من حضر في السقيفة بالأدب العالي، وتمسك الحضور بأخلاقيات التشاور، (إذ لم يكن لأصحاب رسول الله ﷺ أن يختلفوا على خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وما اختلفوا عن ذلك، لكن ما حدث هو نوع من المشاورة والدراسة، إنه الشعور بالمسؤولية تجاه الرسالة وتجاه الأمة، فوفاة الرسول ﷺ مصاب عظيم، فلو أن رسول الله ﷺ عيّن أبا بكر كخليفة له في حياته، وأمر بذلك لما تردد أحد، ولما حاور أحد) [١]، لكنه ﷺ أشار إلى ذلك إشارات ترتفع إلى مستوى التعيين بالنص، وليس بالحرف، فما جرى في السقيفة هو نوع من الحوار السياسي، فحينما وقف أبو بكر ﷺ خطيباً، ثم قال لسعد بن عبادة ﷺ زعيم الأنصار: (يا سعد إن رسول الله ﷺ قال: وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبعاً لفاجرهم، فقال سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء) [٢].

إن كلمة سعد بن عبادة ﷺ تحمل معنى من أعظم المعاني، لم يكذب أبا بكر، فقد تذكَّر، ولم يكابر فهو مؤمن، بل قال: صدقت، إنها الشجاعة، وإنه الرضوخ للنص، وإنها الطاعة لله ولرسوله ﷺ، أبعد كل هذا يحلوا لجاهل أن يظن أن في القضية تنازعاً على الدنيا ؟ لقد كان الأمر خشية على الدين وحرصاً على وحدة الأمة [٣].

عندئذ قال عمر ﷺ: ابسط يدك يا أبا بكر فلأبايعك، فقال أبو بكر ﷺ: بل أنت يا عمر، أقوى لها مني، وكان عمر أشد الرجلين، وكان كل واحد يريد الآخر لثقته بأنه خير منه لأحوال المسلمين، وكان كل واحد منهما يريد صاحبه يفتح يده يضرب عليها، ففتح يد أبي بكر، وقال: لك قوتي إلى قوتك، فبايع الناس [٤]، لكن بشير بن سعد أبو

---

(١) خلافة أبي بكر في فكر ابن تيمية السياسي: د. أنور ماجد عشقي، مكتبة التوبة، السعودية، ط١/ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ١/ ٢٠١.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١/ ٥٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٩١: (رواه أحمد وفي الصحيح طرف من أوله، ورجاله ثقات إلا أن حميد بن عبد الرحمن لم يدرك أبا بكر).

(٣) خلافة أبي بكر في فكر ابن تيمية السياسي: د. أنور ماجد، ص ٢٠٢.

(٤) تاريخ الطبري:٢/٢٥٤.

النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنهما قال: يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم، ولا تنازعوهم [١].

رأى أبو بكر ﷺ بعد ذلك أن الفرص سانحة لتوحيد الكلمة، ورأى من الواجب قفل باب المناظرة، فقال: (هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا) ، فقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين، وثاني أثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ أبسط يدك نبايعك، فتقدما ليبايعا أبا بكر ﷺ، وكانت المفاجأة، إذ تعجل بشير بن سعد ﷺ إلى البيعة، فبايع أبا بكر ﷺ، فكان أول من بايع على الخلافة في التأريخ، فكانت سابقة محمودة [٢].

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ﷺ، سارعوا إلى البيعة لحسم القضية، ولتوحيد الكلمة، وتدافع الأنصار كلهم إلى المبايعة، وأقبلت أسلم بجماعتها تضايق بهم السكك في المدينة، فبايعوا أبا بكر ﷺ، فكان عمر ﷺ يقول: (ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر)[٣]، ويقصد بذلك نصر الإسلام بتوحيد الكلمة، كانت السقيفة وما حدث فيها مدرسة من مدارس السياسة والفقه، تميز فيه أبو بكر ﷺ بالقدرة على إدارة الحوار بكل هدوء، وتميز فيها عمر بن الخطاب ﷺ بحسم الأمور وإقامة الحجة، أما أبو عبيدة ﷺ، فكان كعادته يطلق الحِكَم التي تعني الكثير من المعاني، فقال للأنصار كلمة أعادت اليقين إلى قلوبهم، فتغلبت على بشريتهم، قال: (يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر) [٤] عندها خشي الأنصار من مغبة الجدل،

(١) خلافة أبي بكر في فكر ابن تيمية السياسي: د. أنور ماجد، ص ٢٠٣.

(٢)المصدر نفسه: ص ٢٠٤.

(٣)المصدر نفسه: ص ٢٠٥.

(٤)خلافة أبي بكر في فكر ابن تيمية السياسي: د. أنور ماجد، ص ٢٠٥.

فانصاعوا إلى النص، وأصبح طريق الحوار والتفاهم هو السائد في سقيفة بني ساعدة بين أبي بكر وصاحبيه ﷺ وبين الأنصار، حيث كان الحوار في السقيفة، قوامه الكلمة المنضبطة بالأخلاقيات الإسلامية، كحد لتأصيل المفاهيم، فالحوار بالكلمة في ميدان الفكر لا يقل عناءاً عن الحوار بالسيف في ميدان القتال، لقد واجه أبو بكر وصاحباه عمر وأبو عبيدة ﷺ أصواتاً شجاعة، تجأر بوجهة نظرها دون مواربة أو مداهنة، ولو لم يكن لدى أبو بكر ﷺ قوة الحجة وعمق الإدراك، لما تمكن من الصمود والإقناع، وحسم الأمر وإنقاذ الأمة، وكان الكل يعتقد أن ما يقوله هو الحق، وهو الذي يصلح أحوال المسلمين، وكان الأنصار على ثقة من أن قيادتهم للأمة الإسلامية هي من صميم اختصاصهم، كأنصار احتضنوا الدعوة ورعوها حق رعايتها، فما استكانوا وما ضعفوا، فمن حقهم أن تكون لهم الرعاية إلى الأبد، لكن أبا بكر ﷺ طرح أمامهم النص وكذلك فعل عمر ﷺ، فتراجع الأنصار؛ لأن قضاء الله وقضاء رسوله ﷺ لا يترك باباً للخيار الإنساني [1].

إن المقاتلين الشجعان هم مادة الحوار في ميدان القتال لكن المفكرين هم مادة الحوار في ميدان الكلمة، وإن الأمة الإسلامية اليوم لديها الكثير من المقاتلين الشجعان لكنها في حاجة إلى مفكر واحد له القدرة على تأصيل المفاهيم.

ومن خلال ما تقدم نتوصل إلى أن الالتزام بأدب الحوار عند التشاور يساهم في إيجاد أجواء مناسبة من التفاهم والانسجام، حيث من خلاله يتم دراسة القضايا المطروحة على طاولة النقاش بأسلوب علمي ناضج ومتكامل لا تعتريه الثغرات، وبالتالي يعود أثره على الصعيد السياسي، فتصدر قرارات سياسية مدروسة يعود نفعها وفائدتها للجميع، بخلاف القرارات التي تصدر وسط الضجيج والمهاترات الكلامية، فإنها يغلب عليها التسرع، وتحوم حولها الظنون والشكوك، حول مدى صلاحيتها والجدوى منها.

إن التزام قادة الفكر والرأي بأدب الحوار عند التشاور يفضي إلى الانتقال الهادئ والسليم للسلطة في حال غياب رئيس الدولة بالموت ونحوه.

(١) المصدر نفسه: ص ٢٢١.

ومن خلال التأمل في ما جرى من حوار سياسي في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فإننا نتلمس أدباً عالياً في الحوار والتشاور، فمع عظمة المصيبة، وهول الكارثة، بفقد الأمة نبيها وقائدها، فوفاة الرسول ﷺ تعني توقف الوحي المتلو وغير المتلو، وبروز دور الاجتهاد، والاجتهاد يعني إعمال العقل في تطبيق النصوص على النوازل والمستجدات، وتحصيل الحكم الشرعي لما لا نص فيه، ولا يتأتى ذلك إلا بفهم عميق للمنهج الإسلامي [١]، ومع كل ما تقدم نجد هذا الالتزام الراقي بالخلق الإسلامي الرفيع، مما كان له الأثر الكبير في استقرار الأمور واستتبابها.

المطلب الثالث

مراعاة المصلحة العليا للأمة

إن من الأخلاقيات التي يجب على قادة الفكر والرأي الالتزام بها مراعاة مصلحة الأمة عند اتخاذ أي قرار، ولاسيما القرارات المصيرية الحاسمة التي يترتب عليها عواقب ونتائج كبيرة، وذلك من خلال عدم التسرع والانجرار وراء العاطفة.

والقيادة السياسية لا يجوز لها أن تدخل شعبها في مغامرات غير محسوبة النتائج، كإبرام اتفاقيات مع أطراف دولية تضر بمصلحة الأمة، أو اتخاذ قرارات بإعلان حرب على هذا البلد أو ذاك، وزج الشعوب في أتون الحروب المدمرة التي لا طائلة منها.

ومن خلال أدنى تأمل في السيرة النبوية يلاحظ مدى مراعاة النبي ﷺ لمصلحة المسلمين العليا، ومن ذلك: اللجوء إلى التفاوض من أجل الحفاظ على المصلحة العليا للأمة، وقد ذكر الأستاذ محمد زكريا النداف أمثلة للمفاوضات التي خاضها النبي ﷺ من أجل مصلحة المسلمين [٢]:

أولاً: التفاوض من أجل كسب أنصار جدد لدعم مشروع الدولة المسلمة.

---

(١) جهود الإمام ابن القيم الجوزية في علم السياسة الشرعية: د. عبد الله الحجيلي، ص ٢١٨.

(٢) الأخلاق السياسية: الأستاذ محمد زكريا النداف، ص ٥٠٢.

فقد عرض النبي ﷺ دعوته على قبائل كثيرة على بني عامر بن صعصعة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبني نصر، وبني البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد [١].

ثم عرض الإسلام على وفد من يثرب من الخزرج في موسم الحج، فقبلوا دعوته ﷺ ، فكان بعد ذلك بيعة العقبة الأولى والثانية، كما عرض بعد الهجرة على هوذة بن علي، ومسيلمة الكذاب، وعمرو ابن الطفيل [٢].

وفيما يأتي أمثلة لبعض هذه المفاوضات وهي من باب: التمثيل لا الحصر؛ وذلك لبيان الجهد التفاوضي، والدعوي الذي بذله النبي ﷺ من أجل بناء الدولة.

فقد جاء وفد ثقيف في أواخر البعثة النبوية إلى المدينة المنورة، ومعه عزة الجاهلية، وتركه النبي ﷺ في الجو الإسلامي يتعرف على مبادئ الدعوة ومفاهيم الإسلام، وكانت نفسية الوفد منطلقة من صورة معاهدة صلح أكثر من صورة إسلام، ومن أجل ذلك قدموا شروطاً خمسة: (يأذن لهم فيها بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات ولا يهدمها ثلاث سنين، وأن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك) [٣]، قال ابن هشام: (وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما يرجو يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: ((أما كسر أوثانكم بأيديكم، فسنعفيكم منه، وأما الصلاة، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، فقالوا: فسنؤتيكها وإن

(١) الرحيق المختوم : لصفي الرحمن المباركفوري،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٧هـ-١٩٩٦م،ص ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٨.

(٣) المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير محمد غضبان، ص ٤٩٥.

كانت دناءة)) [١]، فنلاحظ أن النبي ﷺ لم يقف مع وفد ثقيف على الأمور الشكلية:من يهدم الأصنام ؟ ولكن أصر على الأمور الأساسية: الصلاة، كسر الأصنام، فوافقت ثقيف وأسلمت، وبتلك المفاوضة المتأنية من رسول الله ﷺ والصبر الجميل على ثقيف انهارت أمنع حصون الجاهلية، ودخل أهلها في الإسلام [٢].

ومن أمثلة المفاوضات التي لم تنته بصلح أو هدنة؛ لأنها كانت مجرد مساومات على الملك: ما قام به عامر بن الطفيل الغطفاني، فعن أنس ﷺ أن عامر بن الطفيل زعيم المشركين خيَّر النبي ﷺ بين ثلاث خصال، فقال:((يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف)) [٣]، ولكن النبي ﷺ لم يستجب له؛ لأنه طالب ملك، فدعا النبي ﷺ عليه، فمات الرجل في مرجعه إلى قومه[٤].

وقد رفض النبي ﷺ مساومات القبائل على الملك عندما كان المسلمون بضع عشرات قبل الهجرة، فكيف يقبل بهذه المساومات، وقد غدا للمسلمين دولة ومنعة ؟ فقد أتى النبي ﷺ في العهد المكي بني عامر ابن صعصعة يعرض عليهم الإسلام، فقال قشير بن كعب بن ربيعة: (لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟فقال ﷺ: ((الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء))، فقال: أفتهدفُ نحورنا للعرب

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٢١٨، برقم ١٧٩٤٢، وسنن أبي داود:١٦٣/٣،برقم ٣٠٢٦، كتاب الخراج و الإمارة والفيء،باب ما جاء في خبر الطائف، والسيرة النبوية: لإبن هشام، ١٦٥/٤، والرواية التي أوردها الإمام أحمد في سندها عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف من جهة حفظه مع جلالته وفضله. يراجع: نهاية الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط: لبرهان الدين أبي إسحاق العجمي(ت ٨٤١ هـ) دراسة وتحقيق: علاء الدين علي رضا، دار المعرفة، بيروت، ط ١/ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م،ص١٩٠.

(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير محمد غضبان، ص ٤٩٥.

(٣) صحيح البخاري:١٥٠١/٤،برقم ٣٨٦٤،كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ورعل، وذكوان، وبئر معونة، وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه.

(٤) صحيح البخاري:١٥٠١/٤،برقم ٣٨٦٤،كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ورعل، وذكوان، وبئر معونة، وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه.

دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه [١]، وقد بعث النبي ﷺ سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي في اليمامة، وكان في كتابه ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك)) [٢]، فكتب إلى النبي ﷺ: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فأجعل لي بعض الأمر أتبعك) [٣]، وأجاز سليطاً بجائزةً وكساه أثواباً من نسيج هجر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ، فأخبره وقرأ النبي كتابه وقال: ((لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت باد وباد ما في يده))، فلما انصرف النبي ﷺ من الفتح جاء جبريل عليه السلام بأن هوذة مات [٤].

ومن تلك المفاوضات ما جاء في خبر مسيلمة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ ، فجعل يقول إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحي إلي

(١) السيرة النبوية:لإبن هشام، ٢/ ٣٤، وتأريخ الطبري: ١/ ٥٥٦، والبداية والنهاية:لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط/ بدون تاريخ، ٣/ ١٣٩ – ١٤٠.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ط٦/ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م، ص ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٥٧.

(٤) الطبقات الكبرى: ابن سعد، ١/ ٢٦٢، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة: لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي،عالم الكتب،بيروت،ط١/١٤١٧هـ– ١٩٩٧م،٢/ ٤٠٢ – ٤٠٣.

في المنام أن انفخهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة))[١].

ثم كتب إلى مسيلمة: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين))[٢]، فرد مسيلمة: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون)[٣]، وقد ترك النبي ﷺ هذا المتنبئ الكاذب للصحابة ﷺ من بعده يقضون على دعوته الكاذبة في عهد أبي بكر ﷺ.

ثانياً: المفاوضة بهدف كسب اعتراف بالدولة الإسلامية الناشئة (صلح الحديبية)

وخير مثال على ذلك ما جرى بين النبي ﷺ وقريش من مفاوضات شاقة إبان معاهدة الحديبية، وهي في الصحيحين، وأكتفي من تفاصيل عرضها على أمور تبين مدى حرص النبي ﷺ على إنجاح الجهد التفاوضي الذي بذله المسلمون من أجل كسب اعتراف ضمني من قِبَل المشركين بالدولة الناشئة.

إن قريشاً كانت تماطل في الصلح، فقد أرسلت عدة سفارات إلى النبي ﷺ، بعد رسالة النبي ﷺ التي أرسلها مع بديل الخزاعي، فأرسلوا مكرز بن حفص، ثم الحليس بن علقمة زعيم جماعة الأحابيش في مكة، ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، فلم يحدثوا أي صلح [٤].

ويذكر ابن هشام أن النبي ﷺ بعث إلى قريش برجل من خزاعة هو خراش بن أمية على جمل للنبي ﷺ، فلما وصل قريشاً، عقروا الجمل، وأوشكوا أن يقتلوا السفير،

---

(١) صحيح البخاري:٣/١٣٢٥،برقم ٣٤٢٤، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

(٢) السيرة النبوية:لإبن هشام: ٣٠٣/٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد:(رواه أبو داود باختصار رواه الطبراني من طريق ابن اسحق قال حدثني شيخ من أشجع ولم يسمه وسماه أبو داود سعد بن طارق وبقية رجاله ثقات).

(٣) شعب الإيمان:للبيهقي:١٦٢/٢،برقم ١٤٤١، وتأريخ الطبري:٢٠٣/٢.

(٤) ينظر: السيرة النبوية: د. علي الصلابي، ٢/ ٣٧١.

مما يدل على مماطلة قريش وبغض كثير من أهلها للصلح [١]، عند ذلك بعث النبي ﷺ عثمان بن عفان ﷺ سفيراً له إلى قريش، فاحتجزته قريش بمكة، فلما أشيع مقتل عثمان بايع المسلمون النبي ﷺ على مناجزة قريش، وكان من نتائج هذه البيعة أنها أرهبت قريشاً، [٢]، وذلك لما بلغها أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرسول ﷺ على القتال، فقد أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي ﷺ [٣]، ولما رأى رسول الله ﷺ سهيلاً قال :((لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل))[٤].

فقد كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يعرفون بالحنكة السياسية والدهاء، فهو خطيب ماهر، ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان ﷺ، وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما، وقد اتفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث، والجدل، والأخذ والرد حول هذه البنود، وبعد المراجعات، والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين.

وعند الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة، وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط كاد أن يعثر سير هذه الاتفاقية [٥]، لكنّ الحكمة النبوية تداركت الموقف من منطلق مراعاة المصلحة العليا للمسلمين، وفيما يأتي بيان لأبرز النقاط التي من خلالها يظهر مراعاة النبي ﷺ للمصلحة العليا:

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٨٦ وما بعدها.

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية: د. محمد رواس قلعه جي، ص ٢١٨.

(٣) التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد النبي ﷺ: د. علي عبد المعطي، مؤسسة المعارف، بيروت، ط١/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٣٣٩.

(٤) مسند الإمام أحمد:٤/٣٢٥، والسنن الكبرى للبيهقي:٩/٢٢١،كتاب الجزية، باب ما جاء في مدة الهدنة.

(٥) السيرة النبوية: د. علي الصلابي، ٢/ ٣٧١.

١- ففيما يتعلق بديباجة المعاهدة كانت المصلحة العليا حاضرة فيها، وذلك عندما شرع النبي ﷺ في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها، أمر الكاتب وهو: الصحابي الجليل علي بن أبي طالب ﷺ، بأن يبدأ المعاهدة بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرحمن، أكتب (باسمك اللهم)، فضج الصحابة على هذا الاعتراض قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن، ولكن النبي ﷺ، تمشياً مع سياسة الحكمة، والمرونة، والحلم، والحفاظ على المصلحة الإسلامية، قال للكاتب:(اكتب باسمك اللهم)[١]، فعن أنس ﷺ قال: ((.... أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما باسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم)) [٢].

٢- وعند كتابة النصوص الداخلية للمعاهدة تجلت الحكمة النبوية مرة أخرى، فهي حاضرة دائماً؛ لأن الهدف من السياسة الإسلامية الحفاظ على المصلحة العليا للأمة، ويتبين ذلك من خلال المعالجة النبوية الحكيمة للخلاف الحاد بين الصحابة الكرام و وفد المشركين، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((.... فقال: اكتب من محمد رسول الله، قالوا: لو علمنا أنك رسول الله لأتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: اكتب من محمد بن عبد الله))[٣].

إن مراعاة المصلحة العليا للأمة هي التي جعلت النبي ﷺ يأمر الكاتب أن يغير ما كتب، ويبدل الصياغة رغم كل ما تحمله من دلالات ومعاني، ورغم الاعتراض الشديد من قبل المسلمين وحالة الغليان عند الصحابة ﷺ على ذلك، نجد النبي ﷺ أمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله ويستبدلها باسمه الكريم.

---

(١) ينظر: المغازي: للواقدي (ت٢٠٧هـ)، ٢/ ٦١٠

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٤١١، برقم ١٧٨٤، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٤١١، برقم ١٧٨٤، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

٣- وتضمنت المعاهدة بندين عدا ما تقدم كانا شاقين جداً على الصحابة ﷺ، وهما: ردّ المسلمين، وتأجيلهم إلى العام القادم، والآخر هو: أنه من أتى المسلمين من قريش مسلماً يقوم المسلمون برده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع النبي ﷺ لم يردوه عليه، فشق ذلك على الصحابة ﷺ، فعن أنس ﷺ قال: ((... فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)) (١).

٤- وبعد أن خاض المسلمون مفاوضات شاقة مع المشركين تم الاتفاق، وقد تبين فيما تلا ذلك من أحداث مدى الانتصار السياسي بعيد المدى (الاستراتيجي) وحتى العسكري الذي حققه المسلمون حيث كان صلح الحديبية مقدمة وتمهيد لفتح مكة،وهو ما سنتناوله في الأثر السياسي.

ثالثاً: التفاوض من أجل كسر شوكة الأعداء المتحالفين

وفي حصار الأحزاب للمسلمين في غزوة الخندق حصل تفاوض بين المسلمين وزعيمي غطفان (عيينة بن حصن والحارث بن عوف) على أن يدفع المسلمون قسماً من ثمار المدينة لغطفان لتتخلى عن حلفائها من الأحزاب (٢)، (ولم يقصد النبي ﷺ أن يجعل من هذا الحديث والمراوضة مع عيينه والحارث حقيقة مصالحة بينه ﷺ وبينهما، وإنما أراد ﷺ هذا المعنى الذي أبرزناه ليكون مبعث شك في روابط التحزب التي تربط هذه الحشود المتكالبة على حرب المجتمع المسلم) (٣).

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٤١١، برقم ١٧٨٤، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

(٢)المعجم الكبير: للطبراني، ٦ / ٢٨، برقم ٥٤٠٩، والسيرة النبوية: لإبن هشام، ٣/ ١٩٣، ومجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي، برقم ٩٧٧١، كتاب المغازي والسير، باب غزوة الخندق وقريظة، وقال: (رواه البزار والطبراني، وفيهما محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات).

(٣) محمد رسول الله ﷺ: للشيخ محمد صادق أرجون، دار القلم، دمشق، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ، ٤/ ١٧٩.

إن انتهاء المفاوضات مع بني غطفان على الصورة التي انتهت بها كان لها كبير الأثر في اختلاف الفقهاء والعلماء حول مدى جواز الدخول مع العدو في مفاوضات تتوخى دفع مبالغ مالية للعدو لقاء مهادنته للمسلمين (١)، فثمة اتجاه يعارض الدخول في مفاوضات من هذا القبيل، ولو كان بالمسلمين ضعف وبعدوهم قوة، إذ يتعين على أولي الأمر والحال كذلك أن يتوجهوا إلى الحرب بدل أن يدفعوا الجزية للعدو؛ لأن الموافقة على دفع مبالغ مالية للعدو يضع المسلمين في منزلة أدنى، وينال من هيبتهم وكرامتهم، وثمة اتجاه آخر يذهب إلى أنه لا يوجد ما يمنع عند الضرورة القصوى التي يقدرها ولي الأمر من دفع جزية أو مبالغ مالية للعدو لقاء مهادنته للمسلمين، على أن يكون ذلك لظروف استثنائية ولفترة قصيرة غير متواصلة؛ ليتسنى للمسلمين تجميع صفوفهم وتجهيز أنفسهم (٢).

البعد الأخلاقي في مراعاة المصلحة العليا للأمة

إن مراعاة المصلحة العليا للأمة من أوجب واجبات السلطة السياسية التي ترعى وتخطط وتراقب عمل الحكومة، فإنما وجدت الحكومات ورضي الناس بالخضوع لها، والإذعان لسلطانها؛ لأنهم يشعرون أن ذلك يحقق لهم مصالحهم، ويدفع عنهم اعتداءات المعتدين، وشرور ذوي الشر (٣).

فالناس يخضعون أنفسهم لقرارات القيادة السياسية راضين طائعين، وهم لا يعطون ذلك لغيرها مهما كلفهم ذلك؛ لأنهم يجدون في ظل قراراتها التي ترعى مصالحهم الأمن والأمان، والحماية والرعاية، وهم في سبيل ذلك يضعون كل إمكاناتهم الشخصية تحت تصرف الدولة التي يحتوي نظامها السياسي على سلطة تنظيمية تضمن الحقوق، وترعى المصلحة العليا.

---

(١) ينظر:الأم: للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي،دار الفكر، بيروت، ط٢/١٣٩٣هـ، ٤/١١٠، وفقه السيرة:د.محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

(٢) ينظر:الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام: د. نادية مصطفى وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط/١٤١٧هـ-١٩٩٦م،ص ١٦.

(٣) القيادة والجندية في الإسلام: د. محمد السيد الوكيل، ص ٢١٣.

والنظام السياسي الذي تسعى سلطته التنظيمية من أجل الحفاظ على المصلحة العليا لا يكون عرضة للهزات السياسية، وعدم الاستقرار، فالأشخاص الذين منحوه ولائهم، وأعطوه إخلاصهم إذا لم يجدوا مقابل ما يبذلون أناساً يحافظون على المصلحة العليا، فإن حالة النقمة والغضب سوف تسري في الصفوف، ومن نتائج ذلك الثورات التي أرّقت العالم، وزعزعت الأمن والاستقرار، وقضت على الهدوء والرخاء في كل بلد قامت فيه [١].

إن الإنسان غالباً ما يحدد مصالحه في الحياة بما تميل إليه نفسه، وتدفعه إليه ملذاته العاجلة، فيكون حينئذ تحت تأثيرات نفسية، وضغوط جسمية لا يستطيع تحت وطأتها أن يفكر في مصالحه الحقيقية، إنه لاستيلاء المصلحة العاجلة على عقله وحسه لا يرى غيرها، ويلح في طلبه، بل ويعرض نفسه للضرر سعياً للحصول عليها، فإذا ترك كل إنسان وما يشتهي، وأطلقنا باسم الحرية العنان للناس؛ ليفعلوا ما يشاءون، ويلهثوا وراء ما يحبون، أختل نظام الأمن، وسادت الفوضى، وعم الاضطراب، وأصبح الناس وكأنهم في غابة لا نظام فيها ولا قانون، فلا بد إذاً أن تكون هناك قيادة واعية لما يدور حولها، بصيرة بأحوال الرعية، تبذل جهدها فيما يحقق لهم المصلحة التي يعود عليهم نفعه، وينعمون بسعادتها في الدنيا والآخرة [٢]، وهذا ما تحقق في السياسة النبوية التي راعت المصلحة العليا للأمة في كل قراراتها، وامتدت انعكاسات ذلك على الحالة الأخلاقية، والسياسية للمجتمع الإسلامي، حيث يقول الأستاذ سيد قطب في معرض حديثه عن الآثار التي ترتبت على المفاوضات التي جرت بين المسلمين والمشركين في صلح الحديبية، بقوله: (... ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء، وقلوبهم، وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضا، والتكريم، والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها

(١) القيادة والجندية في الإسلام: د. محمد السيد الوكيل، ص ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٤.

بأرواحهم، وقلوبهم، ومشاعرهم، وسماتهم، وينظر بعضهم في وجوه بعض، فيرى أثر النعمة التي يحسها وهو في كيانه) [١].

الأثر السياسي في مراعاة المصلحة العليا للأمة

١- إن مراعاة المصلحة العليا للأمة فيها من الآثار السياسية ما يظهر بأدنى تأمل، فمن خلاله تصان الأوطان، وتحفظ مصالح الإنسان، فالدول التي لا يرعى ساستها المصلحة العليا لشعوبهم تكثر فيها النزاعات والصراعات، وتراها تزج شعبها في حروب وكوارث لا طائل منها، مما يتسبب في تردي الحالة الاقتصادية والاجتماعية، فتجد المشردين، والأرامل الثكالى، والأيتام الذين ينشئون تحت خط الفقر الذي يولِّد في نفوسهم حقداً طبقياً، ويكفي أن نعلم أن معظم معتنقي الفكر الشيوعي هم من الفقراء، حيث أن الأفكار الاشتراكية، وكل الأفكار المتطرفة تنمو في المجتمعات الفقيرة.

٢- إن مراعاة المصلحة العليا للأمة يولِّد حالة من الثقة والاحترام للسلطة التنظيمية، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يقتطع جزءاً من أرض العقيق كان قد أعطاها النبي ﷺ لبلال بن الحارث، فعن الحارث بن بلال عن أبيه ((أن رسول الله ﷺ.....أقطع بلال بن الحارث العقيق أجمع، فلما كان عمر قال لبلال: إن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحجزه عن الناس لم يقطعك إلا لتعمل، قال: فقطع عمر بن الخطاب للناس العقيق))[٢].

وقد ولَّدت هذه المراعاة الدائمة لمصلحة المسلمين حالة من الهيبة والاحترام للخليفة ومنصب الخلافة، حتى قالوا: (لدرة عمر أهيب من سيوفكم) [٣].

---

(١) في ظلال القرآن: للأستاذ سيد قطب، ٦/ ٣٣٣٣.

(٢) صحيح ابن خزيمة:لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، (ت٣١١هـ)،تحقيق: د.محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت،ط/١٣٩٠هـ-١٩٧٠م،٤/٤٤،برقم ٢٣٢٣، كتاب الزكاة، والمستدرك على الصحيحين:للحاكم:١/٥٦١ برقم ١٤٦٧، وقال:(هذا حديث صحيح ولم يخرجاه).

(٣) الطبقات: لإبن سعد، ٣/ ٢٨١.

٣- إن حالة عدم مراعاة المصلحة العليا عند اتخاذ القرارات السياسية أنتج كوارث عالمية لا زال المجتمع البشري يدفع فاتورتها، ومن ذلك الحربين العالميتين المدمرتين اللتين أكلتا الأخضر واليابس، حيث كان لعدم المبالاة بعواقب الأمور أثراً مباشراً في نشوبها واندلاعها.

٤- إن حالة الاندفاع الشديد، والمواقف المتشددة التي اتخذها بعض الصحابة ﷺ إبان صلح الحديبية، وما رافقها من جدل سياسي كان دافعها الغيرة على الدين، ولكن المنهج النبوي يقوم على الحفاظ على مصلحة المسلمين العليا، وهي ليست بالضرورة تكون دائماً بتبني المواقف المتشددة، بل إن قبول النبي ﷺ بالشروط التي يبدو ظاهرها الإجحاف والظلم بالمسلمين كان لمصلحة تبينت فيما بعد عظمتها ودقتها، وآثارها السياسية، وجعلت قريش تسعى جاهدة من أجل تعديلها وإلغائها، فهذا سهيل بن حنيف يقوم واقفاً يوم صفين، فيقول: ((أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا، قال: فانطلق عمر، فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر ﷺ فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه ورجع)) [(١)].

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٤١١، برقم ١٧٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

وفيما يتعلق بالآثار السياسية المباشرة التي نتجت عن صلح الحديبية، فإنه تتبين لنا النتائج الآتية، والتي من أهمها:

- اعتراف قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون: أنها الإمام والقدوة.
- دخلت المهابة في قلوب المشركين، والمنافقين، وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم [١].
- أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهري: (فما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، و وضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث، والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك) [٢]، وعقَّب عليه ابن هشام بقوله: (والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)[٣].
- أمن المسلمون جانب قريش، فحولوا ثقلهم على جانب اليهود، ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.
- مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين، ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبون، رجع إلى أصحابه، قال: لقد رأيت البُدن قد قُلِّدَتْ، وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصدّوا عن البيت.

---

(١) السيرة النبوية: د. علي الصلابي، ٢/ ٣٨٧.

(٢) ينظر: السيرة النبوية: لإبن هشام، ٣/ ٣٥١.

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٣٥١ – ٣٥٢.

- مكَّن صلح الحديبية النبي ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.
- ساعد صلح الحديبية النبي ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس، والروم، والقبط يدعوهم إلى الإسلام.
- كان صلح الحديبية سبباً ومقدمة لفتح مكة، يقول ابن القيم: (كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله ﷺ، وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً، ومؤذناً بين يديه، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الأمور العظام التي يقضيها قدراً، وشرعاً أن يوطِّئ لها بين يديها مقدمات، وتوطئات تؤذن بها، وتدل عليها)[1].

المطلب الرابع

مراعاة مشاعر الرأي العام درءً للفتنة

يقوم النظام السياسي على احترام رأي الأغلبية في الأحكام التي لم يرد فيها نص، وشرَّع آليات للوصول إلى رأي الناس، ومعالجة همومهم وقضاياهم بشكل علمي نابع من صميم البيئة التي تحدث فيها المشكلة، وما تشريع مبدأ الشورى ومبدأ التدرج في تشريع الأحكام إلا تعبيراً حياً عن مراعاة توجهات الرأي العام؛ وذلك لأن أعضاء قادة الفكر والرأي إذا لم يأخذوا بحسبانهم توجهات الرأي العام ومصالحه، فإن ذلك يمكن أن يحدث فتنة واختلاف في الصف الداخلي.

وقد وردت أحاديث و وقائع عملية عن رسول الله ﷺ فيها إشارات لذلك، ومما يستدل به على مراعاة النبي ﷺ لمشاعر الرأي العام درءً للفتنة ما يأتي:

- امتناع النبي ﷺ عن تحويل الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((لو لا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم؛ لنظرت أن أدخل الحجر في البيت، وأن الزق بابه في الأرض))،

(١) زاد المعاد: لإبن القيم، ٣/ ٣٠٩.

وفي رواية: ((لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم))[١]، فالنبي ﷺ وقد دخل إلى الكعبة عام الفتح، ومعه جيشه، وحوله صحابته الذين لا يترددون في تنفيذ أوامره، وقد تجمعت قبائل العرب حوله ﷺ، ودمرت الأصنام، وكسرت شوكة الشرك، وأصبحت دولة المسلمين قوية، وأضحى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ففي أوج معالم القوة هذه امتنع النبي ﷺ من تحويل الكعبة إلى قواعد إبراهيم، فهو ﷺ ليس لديه أدنى شك في ولاء صحابته الكرام ﷺ، وحبهم له، ومسارعتهم إلى تنفيذ الأوامر، ولكن قضية تحويل الكعبة، وإعادة بناؤها تعد من القضايا التي يهتم بها الرأي العام في جميع أنحاء الجزيرة العربية، ولاسيما والعرب منذ الجاهلية تُعظِّم البيت وتجله، والنبي ﷺ نظر إلى نفوس المسلمين الجدد، فوجدها غير مهيئة لمثل هكذا عمل، فمثل هذا التغيير قد يغرس في نفوس البعض الريبة والتشكك، فهم بحكم حداثة إسلامهم لا يستوعبون مثل هكذا حدث، فمن عظمة أخلاقه وشمائله ﷺ نرى مراعاته ﷺ لتوجهات الناس، ومشاعرهم.

- استشارة النبي ﷺ للأنصار في أن يعرض صلحاً على غطفان مقابل ثلث ثمار المدينة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: ((جاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد شاطرنا تمر المدينة، قال: حتى استأمر السعود، فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود ﷺ، فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وإن الحارث يسألكم أن تشاطروه

(١) مصنف عبد الرزاق: ٥ / ١٢٨، برقم ٩١٥١، كتاب الحج، باب الحجر وبعضه من الكعبة، ولإبن ماجه بلفظ ((لو لا أن قوك حديثو عهد بكفر...)) سنن ابن ماجه: ٢ / ٩٨٥، برقم ٢٩٥٥، كتاب المناسك، باب الطواف بالحجر، والمعجم الأوسط للطبراني: ٧ / ٢٢٨، برقم ٧٣٧٩، والمسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٩٩٦ م، ٩ / ٤، وقال الحافظ الزيلعي: أخرجه أبو داود والترمذي عن علقمة عن أمه عن عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وعلقمة هذا: هو علقمة بن بلال مولى عائشة رضي الله عنها، تابعي، مدني، احتج به البخاري ومسلم. نصب الراية: للحافظ الزيلعي، ٣ / ٤٣.

تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد، قالوا: يا رسول الله أوحي من السماء ؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك ؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا تمرة إلا بشرى أو قرى، فقال: رسول الله ﷺ هو ذا تسمعون ما يقولون، قالوا: غدرت يا محمد، فقال حسان بن ثابت ﷺ:

يا جار من يغدر بذمة جاره أبدا فإن محمدا لا يغدر
وأمانة المرء حيث لقيتها كسر الزجاجة صدعها لا يجبر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم واللؤم ينبت في أصول السخبر(١)(٢)

فمع تضمن هذه الحادثة على حكم ودلالات كثيرة، ولاسيما في تأصيل مبدأ الشورى، إلا أن هذا الحديث تضمن معنى في غاية الدقة، وهو مراعاته ﷺ لمشاعر الرأي العام من أهل المدينة، وذلك واضح مما جرى من حوار بين النبي ﷺ وقادة الأنصار، فالنبي ﷺ لم يستشر قادة المهاجرين؛ لأن هذه القضية تمس الأنصار، فهي من القضايا العامة التي لها تبعاتها المعنوية؛ وذلك لأن الأنصار لم يعطوا الثمار ــ التي تعبوا في جنيها، وبذلوا الجهد من أجل مداراتها ــ قبل الإسلام إلا مقابل ثمن أو قرى

(١) السخبر:شجر إذا طال تدلت رؤُوسه وانحنت واحدته سَخْبَرَة وقيل السخبر شجر من شجر الثُّمام له قُضُب مجتمعة وجُرثُومة؛ وبنو جعفر بن كلاب يُلقَّبون فروعَ السخْبَره؛ قال دريد بن الصمة مما يجيءُ به فروعُ السَّخْبَرِويقال ركب فلان السخْبَرَ إذا غَدَرَ؛ قال حسان بن ثابت: إِنْ تَغْدِرُوا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ والغَدْرُ يَنْبُتُ في أُصُولِ السَّخْبَرِ أَراد قوماً منازلهم وحالُّهم في منابت السخبر؛ قال ابن بري إِنما شبه الغادر بالسخبر لأَنه شجر إِذا انتهى استرخى رأْسه ولم يبق على انتصابه يقول أَنتم لا تثبتون على وفاء كهذا السخبر الذي لا يثبت على حال بينا يُرى معتدلاً منتصباً عاد مسترخياً غير منتصب وهو شجر تأْلَفُه الحيَّاتُ فتسكن في أُصوله الواحدة سخبرة) .لسان العرب:٤/٣٥٤، والنهاية في غريب الحديث:٢/٣٤٩.

(٢) المعجم الكبير: للطبراني، ٦ / ٢٨، برقم ٥٤٠٩، وقال الحافظ الهيثمي: (رواه البزار والطبراني و فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات). مجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي، ٦ / ١٣٢ – ١٣٣.

لضيف، وذلك واضح من كلام القادة الأنصاريين، فلا يمكن أن يعطوا ثمارهم لغطفان بعد أن أعزهم الله بالإسلام، ومن هنا أصبحت هذه القضية من قضايا الرأي العام التي تمس كل بيت من أهل المدينة، وأراد النبي ﷺ استشارتهم فيها احتراماً لمشاعرهم ومراعاة لها.

إن عدم بت النبي ﷺ في الأمر لا يعني تخوفه من عدم تنفيذ الأنصار لمقرراته، وما ألتزم به من وعود مشروطة مع غطفان، فليس لدى النبي ﷺ شك في ولاء الأنصار، فالأنصار هم السيوف المجربة المدافعة عن حياض الإسلام، وهم الذين سطّروا أروع الأمثلة في حماية الإسلام وفدائه بالنفس، والأهل، والمال، ولكن النبي ﷺ أراد بصنيعه هذا مراعاة مشاعر الرأي العام للمسلمين، وأن يكون القرار منسجم مع توجهات وأحاسيس أهل المدينة.

- امتناع النبي ﷺ عن قتل المنافقين، فعن جابر رضي الله عنه قال: ((غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال: الأنصاري يا للأنصار، وقال: المهاجري يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ، فقال: ما بال دعوى أهل الجاهلية، ثم قال: ما شأنهم ؟ فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال: النبي ﷺ دعوها فإنها خبيثة، وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أقد تداعوا علينا ؟ لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر رضي الله عنه ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث لعبد الله، فقال: النبي ﷺ لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه)) [1].

فقد نص الحديث إلى أن قتل المنافقين يفتح باب الفتنة، ويفسح المجال أمام الرأي العام بالحديث عن مثل هكذا عمل؛ وذلك لأن المنافقين هم أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، والرأي العام يحكم على ظواهر الأمور، ولا يهتم بالتفتيش عن بواطنها وخفاياها.

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٩٦، برقم ٣٣٣٠، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.

- ومن مراعاة مشاعر الرأي العام : امتناع النبي ﷺ عن معاقبة من أساء الأدب في حضرته ﷺ، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: ((أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفه من حنين، وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل، قال: ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر بن الخطاب ﷺ دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق، فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية)) [١].
- مراعاة سنة التدرج في التشريع، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكرت الجنة والنار، حتى إذا أثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً)) [٢]، فمراعاة مشاعر الرأي العام عن طريق التدرج أمر لازم لحصول الاستجابة، لأن تغيير النفوس وإزاحتها عن مألوفاتها ، ونقلها من ميولها أمر ليس سهل، كما أن تغيير الأعراف التي تجذرت في النفوس، واستقرت في العقول، وتواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة تتوجه؛ ولذلك لا بد من مراعاة الطبائع والأفهام، والمقاصد والنيات، والأحوال الخاصة والأعراف والعوائد العامة، والأولويات والمصالح والمفاسد، والأزمنة والأمكنة[٣]، يقول الدكتور يوسف القرضاوي: (ولعل رعاية الإسلام للتدرج لا يقدم على إلغاء نظام الرق الذي كان نظاماً سائداً في العالم كله عند ظهور الإسلام، وكانت محاولة إلغائه تؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج) [٤].

---

(١) صحيح مسلم:٢/٧٤٠،برقم ١٠٦٣،كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٩١٠، برقم ٤٧٠٧، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.

(٣) فقه النصر والتمكين: د. علي محمد الصلابي، ص ٣٥١.

(٤) الخصائص العامة للإسلام: د.يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة ــ مصر، ط٤/ ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م،ص ١٦٦.

ويقول أبو الأعلى المودودي: (إننا إذا درسنا القرآن الكريم، والسنة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف ؟ وبأي تدرج وانسجام تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب ؟ ومنها إلى العالم كله على يد النبي ﷺ، فلقد كانت الأمور تسير رويداً حسب مجراها الطبيعي، حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين) [١].

البعد الأخلاقي في مراعاة الرأي العام

وفي ضوء المعطيات الأخلاقية في سنة التدرج يجدر بقادة الفكر والرأي مراعاة مشاعر الرأي العام تأسياً واقتداءً بسنة التدرج الموجودة في منهج الإسلام التشريعي، فإن المسلمين لم يكلفوا بالتكليفات الكثيرة في بدء الإسلام، بل أخذوا بالرفق تيسيراً على نفوسهم، فجاءت التكليفات قليلة أولاً؛ ليكلفون كل تكليف سابق تمهيداً لقبول التكليف اللاحق، فالصلاة مثلاً شرعت في أول الأمر صلاة بالغداة، وصلاة بالعشي، ثم جعلت خمس صلوات في اليوم والليلة، والزكاة ما كان لها حد محدود، وإنما ترك الأمر للمسلم ينفق ما يستطيعه ويشاؤه، ثم عينت مقاديرها على سبيل الإلزام، والخمر ما حرمت رأساً وإنما مهد لها ببيان أضرارها، أولاً ، ثم النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر ثانياً، ثم جاء التحريم القاطع أخيراً، فعن حارثة بن مضرب قال: قال عمر ﷺ: ((اللهم بيِّن لنا في الخمر، فنزلت يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون إلى آخر الآية فدعا النبي ﷺ عمر ﷺ، فتلاها عليه، فكأنها لم توافق من عمر الذي أراد، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر، فنزلت ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، فدعا النبي ﷺ عمر ﷺ، فتلاها عليه فكأنهالم توافق من عمر الذي أراد، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر، فنزلت يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، حتى انتهى إلى قوله: فهل أنتم منتهون، فدعا النبي ﷺ عمر ﷺ فتلاها عليه، فقال عمر ﷺ: انتهينا يا رب))[٢].

---

(١) فقه النصر والتمكين: د. علي محمد الصلابي، ص ٣٥٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين: للحاكم:١٥٩/٤، برقم ٧٢٢٤،مسند عمر بن الخطاب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وكذا القتال كان في بدء الإسلام غير مأمور به؛ لقلة عدد المسلمين، فأمروا بالعفو والصبر على الأعداء، والإعراض عنهم، وترك مقاتلتهم،، ثم لما قوي المسلمون أذن لهم في القتال دفاعاً عن أنفسهم،

وقد عد أساتذة العلاقات الدولية مراعاة مشاعر الرأي العام العالمي من القيود والضوابط الأخلاقية المهمة للحد من التطرف في استخدام القوة في النزاعات المسلحة بين الدول، فالطبيعة الإنسانية ذاتها تولد الاعتقاد العام والمشترك في عدد من القيم والمبادئ الأدبية والأخلاقية، التي لا تتأثر بالاختلافات القومية أو العنصرية، وأي انتهاك لهذه القيم يعتبر تحدياً واستفزازاً، مما يدفع إلى استنكاره والاحتجاج عليه على نطاق دولي واسع (١).

الأثر السياسي في مراعاة مشاعر الرأي العام درءً للفتنة

ولمعرفة الأثر السياسي لمراعاة مشاعر الرأي العام أرى من المناسب التعرف على عوامل الاهتمام لدراسة الرأي العام، فمن هذه العوامل (٢):

١- **نمو وانتشار التعليم:** أدى انتشار التعليم وزيادة نسبة المواطنين المتعلمين إلى مشاركتهم في الحياة السياسية، ومحاولة التعبير عن آرائهم وأفكارهم، وبخاصة الفئة المثقفة منهم التي تسعى إلى الوضع الأفضل، وتنادي بالتغيير دائماً، ومن ثم أصبح الاهتمام باتجاهات الرأي العام المثقف من قضايا التغيير الاجتماعي الهامة جداً.

٢- **تطور الوسائل الفنية:** إن التقدم الفني الواسع الذي تحقق منذ سنة ١٩٤٥ م في مجال الإعلام والاتصالات، والإنتاج الضخم في مجالات الصحافة، والإذاعة، والتلفزيون، قد ساهم بدور كبير في تكوين الرأي العام، وبصفة خاصة إنتاج أجهزة الاستقبال الفضائي، ومحطات استقبال التليفزيون الفردية والجماعية، ومن ثم لا يوجد شعب أو فرد باستثناء المناطق المعزولة في القطبين الشمالي والجنوبي، لا يتأثر بالأنباء العالمية الهامة، وبالتالي، فإن الرأي العام يتفاعل بسرعة كبيرة مع

(١) العلاقات السياسية الدولية: د. إسماعيل صبري مقلد، ص ٢٠٥.

(٢) نظرية الدولة والنظم السياسية : د. محمد نصر مهنا، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط١/ ١٩٩٩ م، ص ٣١٠٣١١.

الأحداث السياسية الكبرى حينما يشعر أن بعض هذه المشاكل تهمه، مثل التهديد بالحرب أو الغزو الإقليمي، أو الحضر المفروض على بعض المنتجات الأساسية مثل القمح، والرز، والسكر على سبيل المثال.

٣- **محاولة الحصول على تأييد الرأي العام:** ويعني ذلك المحاولات التي تبذل من أجل استمالة الرأي العام المحلي والدولي إلى طرف معين، سواء كان هذا الطرف يمثل مجموعة من الدول أو حزب سياسي، أو جماعة معينة داخل إقليم الدولة، وهذا يؤكد أهمية دور الرأي العام في تأييد أو معارضة البرامج السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية .

٤- **زيادة ارتباط الرأي العام بالسياسة الخارجية:** ويظهر ذلك بوجه خاص في أوقات الأزمات والحروب، والدفاع عن أمن الدولة وسلامتها، وكذلك في زمن السلم، حتى تتمكن الدولة من تنفيذ سياسات الإنتاج والاستهلاك، وتطبيق القوانين والتشريعات سواء في الدول الديمقراطية أو الدول الدكتاتورية (الشمولية) على حد سواء.

أما فيما يتعلق بالآثار السياسية لمراعاة توجهات الرأي العام:

فقد أكد كثير من الباحثين في العلاقات الدولية أهمية مراعاة توجهات الرأي العام في صياغة السياسة الخارجية، وقد استعمل "جبرائيل ألمنود" اصطلاح مزاج السياسة الخارجية (Foreign policy Mood) للدلالة على الاتجاهات أو الميول العامة التي تبديها الفئات الواسعة من الرأي العام في دولة من الدول تجاه سياسة خارجية معينة في وقت من الأوقات [١].

وفيما يأتي سأورد بعض الأمثلة للتدليل على تأثير الرأي العام في المجريات السياسية، ومن ذلك:

كان المزاج السياسي الخارجي المسيطر في أمريكا طيلة القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، هو تحبيذ العزلة الدبلوماسية، وعدم الاكتراث بما يجري في القارة الأوربية من صراعات سياسية، وفي الخمسينات من القرن العشرين كان الذي

(1) K.J Holsti , International politics.Op. cit,, pp. 178. (١)

يسيطر على هذا المزاج الأمريكي الخارجي هو الخوف، ونزعة الكراهية الموجهة ضد الشيوعية والاتحاد السوفيتي بالذات [١].

وفي بريطانيا كان المزاج الخارجي العام المسيطر في الثلاثينات هو كراهية الحرب، وهذه الحالة النفسية كانت جزءاً من الأساس الذي قامت عليه سياسات المهادنة، وتقديم التنازلات لألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية من جانب بريطانيا [٢].

وهذه الاتجاهات رغم أنها لا تحدد أهداف السياسة الخارجية بشكل عملي، إلا أنها وكما يقول البعض: تعين حدوداً للبدائل التي يفاضل بينها ويختار منها واضعو السياسة الخارجية [٣].

إن شعور الرأي العام المبني على الكراهية أو عدم الثقة في دولة معينة، لا يمكن انتزاعه وتغييره بسهولة لمجرد أن الظروف الدولية في موقف معين قد تغيرت على النحو الذي يبرر إجراء تقارب مع الدول التي يسيطر ناحيتها مثل هذا الشعور، ومن أمثلة ذلك أنه في الفترة التي تلت قيام الحرب العالمية الثانية مباشرة، كان الرئيس الأمريكي " روزفلت " يتحاشى إعطاء تعهدات أكثر مما يجب لدعم بريطانيا في حربها ضد ألمانيا النازية؛ وذلك لسيطرة الشعور بالعزلة على المزاج الأمريكي الخارجي من جانب، وبسبب وجود مشاعر معادية لبريطانيا في أمريكا من جانب آخر [٤]، وحين دخلت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا في ديسمبر ١٩٤١ م، بذلت مجهودات هائلة لإقناع الرأي العام الأمريكي بقبول فكرة الدخول في تحالف مع الاتحاد السوفيتي، وهي الدولة التي كان الأمريكيون يشعرون تجاهها بكراهية عنيفة منذ قيام الثورة الشيوعية فيها في عام ١٩١٧ م كذلك، فإن الحكومة الفرنسية اتخذت القرار الخاص بالانسحاب من الهند الصينية في عام ١٩٥٤ م، بسبب الشعور باليأس الذي سيطر على الفرنسيين حول مستقبل هذه الحرب الخاسرة، هذا في حين أنه لم يكن من المتصور إطلاقاً أن تقدم حكومة فرنسية في الفترة بين ١٩٥٤ م – ١٩٥٨ م، على اتخاذ قرار بالانسحاب من

---

(١) العلاقات السياسية الدولية: د. إسماعيل صبري مقلد، ص ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٧.

(٣) (2) K.J Holsti , International politics.Op. cit,, pp. 178.

(٤) (5) K.J Holsti , International politics.Op. cit,, pp. 179.

الجزائر ومنحها الاستقلال، نظرا لما كانت ترمز إليه الجزائر بالنسبة للشعب الفرنسي من الناحيتين النفسية والأدبية [١].

إن الضغوط التي يمارسها الرأي العام في بعض مواقف السياسة الخارجية قد تجبر الحكومات على الاستجابة لها بشكل أو آخر، وإن كان ذلك يختلف بالطبع في النظم الديمقراطية عنه في النظم الدكتاتورية، وفي الأزمات والطوارئ القومية عنه في الظروف العادية [٢].

ولهذا يقسم الباحثون المختصون في العلوم السياسية الرأي العام حسب نشاطه، ومشاركته في السياسة العامة إلى قسمين:

الأول: الرأي العام السلبي: ويمثله جانب كبير من الجمهور، وهو الجانب الذي لا يكون لرأيه أهمية خاصة في السياسة العامة، إذ يقتصر دوره على الإدلاء بصوته في الانتخابات العامة، كما يتلقى وجهات النظر المتعلقة بالأمور العامة دون أن يساهم في إيجادها أو السعي إليها.

الثاني: الرأي العام الإيجابي: فهو ذلك النوع من الناس الذي يشغل نفسه بالقضايا العامة، ويرى في نفسه الطموح والمقدرة على القيادة، وهؤلاء الأفراد سواء كانوا رجال دولة أو صحفيين أو محاضرين يشعرون بأن لهم رأياً في الأحداث العامة الجارية، ولهم فكر معين يصدرون آرائهم بناءً عليه، كما أن لديهم دافع أكبر، وهو الوصول بالجماعة إلى هدف معين[٣].

---

(١) (2) K.J Holsti , International politics.Op. cit,, pp. 179.

(٢) العلاقات السياسية الدولية: د. إسماعيل صبري مقلد، ص ١٤٩.

(٣) ينظر: الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية: د. محمد عبد القادر حاتم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١ / ١٩٩٣ م، ص ٤١٢ وما بعدها.

المصادر والمراجع العلمية

- القرآن الكريم.
١- أحكام القرآن: للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي الأندلسي المالكي (ت٥٤٢هـ)، مطبعة دار السعادة، القاهرة، ط١/١٣٣١ هـ.
٢- الأخلاق الإسلامية و أسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم ، دمشق، ط٢/ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
٣- أدب الطلب ومنتهى الأرب: لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٢ هـ.
٤- الإسلام عقيدة وشريعة: للشيخ محمد شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط٤/ ١٩٦٨ م.
٥- الإسلام وأوضاعنا السياسية: للأستاذ عبد القادر عودة، مطبعة المختار الإسلامية، القاهرة، ط٥/ ١٣٩٧ هـ.
٦- تاريخ الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري،(ت٣١٠هـ)دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٧هـ.
٧- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد:للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة،ط/ بدون تاريخ.
٨- الترغيب و الترهيب: لأبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٧ هـ.
٩- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ببن فرج القرطبي (ت ٦٧١ هـ) تحقيق: أحمد عبد الحليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط٢ / ١٣٧٢ هـ.
١٠- جهود الإمام ابن قيم الجوزية الاجتهادية في علم السياسة الشرعية: د. عبد الله محمد سعد الحجيلي، مطبعة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١/ ١٤٢٧هـ.
١١- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: الشيخ محمد الغزالي، دار التوفيق النموذجية، مصر، ط٣/ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٢- الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة ــ مصر، ط٤/١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
١٣- خلافة أبي بكر في فكر ابن تيمية السياسي: د. أنور ماجد عشقي،مكتبة التوبة، السعودية، ط١/ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
١٤- الخلافة والملك: للأستاذ أبي الأعلى المودودي، ترجمة: أحمد إدريس، دار القلم، بيروت، ط١/١٣٣٨ هـ - ١٩٧٨ م.
١٥- الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي: د. منير حميد البياتي، الدرا العربية للطباعة والنشر، بغداد، ط١/١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
١٦- السلوك الاجتماعي في الإسلام: أ. حسن أيوب، دار الندوة الجديدة، بيروت ــ لبنان، ط ٤ /١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م.
١٧- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط/بدون تاريخ.
١٨- سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
١٩- سنن الدارمي: لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/١٤٠٧ هـ.
٢٠- السنن الكبرى: للإمام الحافظ أبي بكر احمد بن الحسين البيهقي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٢١- السنن الكبرى:لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، (ت ٣٠٣ هـ) تحقيق:د. عبد الغفار سليمان البنداري،دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١١هـ - ١٩٩١ م.
٢٢- السياسة الشرعية: للأستاذ عبد الوهاب خلاف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/١٤٠٤ هـ.

٢٣- السيرة النبوية:لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعروف بابن هشام، (ت٢٣١هـ)،تحقيق:طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١١هـ.

٢٤- صحيح ابن حبان: لأبي حاتم محمد بن حبان أحمد البستي، (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢ / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٢٥- صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (ت ٢٥٦ هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

٢٦- صحيح مسلم:لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ بدون تاريخ.

٢٧- الطبقات الكبرى:لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، (ت ٢٣٠ هـ)، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٢/١٤٠٨هـ.

٢٨- العقد الفريد للملك السعيد: لأبي سالم محمد بن طلحة الوزير (ت ٦٥٢هـ)، مطبعة الوطن، القاهرة، ط١/ ١٤١٨ هـ .

٢٩- العقيدة والسياسة معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية: لؤي صافي،دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

٣٠- العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات: د. إسماعيل صبري مقلد، منشورات دار السلاسل، الكويت، ط٥/ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٣١- فتح الباري:لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط/١٣٧٩ هـ.

٣٢- الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية: أ.د. عبد الكريم زيدان، مطبعة سلمان ألأعظمي، بغداد – العراق، ط ١/ ١٩٦٥ م.

٣٣- فقه الشورى: دراسة تأصيلية نقدية: د. علي سعيد الغامدي، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١/١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.
٣٤- فقه النصر والتمكين: د.علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط٤/١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.
٣٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير: للشيخ عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط٢/ ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م.
٣٦- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: لإسماعيل العجلوني الجراحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢/ ١٣٥١هـ.
٣٧- لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: دار صادر، بيروت، ط١/بدون تاريخ.
٣٨- مجمع الزوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، (ت ٨٠٧ هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١/١٤٠٥ هـ.
٣٩- مجموعة الرسائل: للأستاذ الشهيد حسن البنا، دار الدعوة، الإسكندرية – مصر، ط١/١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.
٤٠- مدخل إلى علم السياسة: د. جان مينو، ترجمة: جورج يونس، منشورات عويدات، بيروت، ط٤/ ١٩٨٦ م.
٤١- المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري،(ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
٤٢- مسند الإمام احمد: لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، (ت ٢٤١ هـ)، مؤسسة قرطبة، مصر، ط/بدون تاريخ.
٤٣- مسند البزار: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (ت٢٩٢هـ)، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط١/١٤٠٩هـ.
٤٤- مصباح الزجاجة: لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني (ت ٨٤٠ هـ)، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط٢/١٤٠٣ هـ.

٤٥- مصنف ابن أبي شيبة: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١/١٤٠٩هـ.
٤٦- مصنف عبد الرزاق: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١٢ هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢/١٤٠٣ هـ.
٤٧- المعجم الأوسط: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسني، دار الحرمين، القاهرة، ط/١٤١٥ هـ.
٤٨- المغازي: للإمام الواقدي (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣/١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٤٩- المنتقى لإبن الجارود: لأبي محمد عبد الله بن علي بن الجارود، النيسابوري، (ت ٣٠٧هـ)، تحقيق:عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتاب الثقافية،بيروت، ط١/١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٥٠- نظام الحياة في الإسلام: النظام السياسي، ترجمة محمد عاصف حداد، دار الفكر، دمشق، ط٢/١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م.